الفصل الخامس

استراتيجية التربية فى تعصير المجتمع المصرى

أشرنا إلى مواطن التخلف فى التعليم المصرى وعملياته . وأشرنا قبل ذلك إلى مواطن التغيير فى المجتمع المصرى التى حدثت بعد الخمسينات لكى يعاد النظر فى دور الجهاز التربوى ، ثم يتحدد موقعه فى هذه التغييرات . وفعاليته فيها فى نفس الوقت الذى يحاول أن يستبطن فيه خصائص تربوية عصرية . مع افتراض أن المجتمع فى حد ذاته يحاول هو الآخر ، ككل ، أن يستبطن مثل هذه الخصائص العصرية فى مجاله الاجتماعى العام .

وكل هذه المناقشات استهدفت أن تكون أساساً لتحديد استراتيجية التربية فى بناء الدولة العصرية .

وهذه الاستراتيجية بدورها تتطلب مناقشة عديد من القضايا حتى تتحدد ملامحها ، ومعالمها ، ومقوماتها .

فهى تتطلب مناقشة الكيفيات والمحددات التى تمكن هذه التربية المصرية من أن تكون قوة فى تغيير هذا المجتمع ، وتعصيره .

وتتطلب مناقشة كيف تستبطن هذه التربية خصائص التربية العصرية والتحفظات بشأنه .

وتتطلب مناقشة موقع التربية فى التغيير والتعصير ، وما يثيره ذلك من قضايا المجتمع المتعلم التربوية ، وما يتطلبه لقيام بهذا الدور من ثورة فى مجال هذه التربية أهدافاً ، وأسلوبا ، ومنهجاً ، وطريقة ، وكتاباً ، ومدرساً .

دور التربية فى تغيير المجتمع المصرى :

إن للتربية دوراً هاما فى بناء الدولة المصرية على أسس عصرية . وهذا الدور يدور حوله الجدل فى المجال التربوى . والاجتماعى . ولا يدور هذا الجدل على أساس ضرورة

وجود أو انتفاء أهميته ، وإنما على أساس موقعه ، واستراتيجيته وأسسه ، وطبيعته فى التغيير الاجتماعى . وكثيراً ما تصاغ هذ القضية على النحو التالى :

هل للتربية أن تقود التغيير والتعصير الاجتماعى ؟ ثم تتوالى الأسئلة المترتبة على تلك الصياغة العامة على النحو التالى :

ما موقف التربية وموقعها فى مجتمعنا وهو يحاول أن يأخذ بأسباب العصر أو على الأقل هذا ما يستهدفه ؟ وما حدود الدور التربوى فى هذا التغيير وما خصائصها ومقوماتها التى ينبغى أن تتوافر لها لكى تقوم بدورها فى التغيير ؟ وما موقفها من الأنظمة الاجتماعية الأخرى فى المجتمع فى عمليات التعصير الشاملة ؟ وما شكلها ولونها ، ومنهجها فى التعصير – تعصير نفسها وتعصير غيرها من النظم الاجتماعية الأخرى ؟ وما هى القضايا التى تثيرها عملية تعصير التربية نفسها ؟

الواقع أن كثيراً ما ينظر إلى الدور القيادى للتربية فى عمليات التغيير الاجتماعى ، وبالتالى فى التعصير على أنه مسألة مسلم بها . ولقد استقرت هذه المسلمة (مسلمة الدور الفعال القيادى للتربية فى التغيير) . منذ قديم الزمان . فأفلاطون لا يرى وسيلة لبناء الدولة غير التربية ، كما كانت نفس هذه النظرة هى المسيطرة على الحضارة المتقدمة فى الشرق العربى الإسلامى فى العصور الوسطى ، بل تجسدت فى واقع الحياة الاجتماعية كلها . وإذا ما قفزنا إلى العصر الحديث نجد الشرق السوفييتى والصينى واليابانى قد انطلق فى تقدمه المعاصر من أساس قيادة التربية فى مرحلة تلت قيادة النظام السياسى مباشرة . بل إن النظام السياسى لم يكن ليجد لنفسه أعماقاً يرسو عليها دون أن يسلم زمام القيادة للتربية فى عمليات التغيير والتعصير الاجتماعى كلها . كما نجد الغرب الأوربى والأمريكى الشمالى قد أعطى له نفس هذا الدور . حيث أسلمت مجتمعاته للتربية زمام القيادة . وقد تمثل هذا فى فكر وفلسفات كتابه التربويين وغير التربويين . فجورج كاونتس على سبيل المثال يذكر فى إحدى مؤلفاته « أننا نحن الأمريكيين ككل الشعوب لدينا إيمان متناه فى التربية »[١] .

ولكن يرد على هذه المسلمة تحفظ أساس مؤداه أن التربية تستطيع أن تكون قوة فى إحداث التغيير الاجتماعى ، وإعادة بناء المجتمع الذى توجد فيه ، ما دامت هناك إرادة فى

(١) George S. Counts. Dare the School Build Arew Social order 1932 Mimographed at Teachers College. Columbia University by Lawrence A. Oremn with the Kind permission of Professor Counts and of the John Day company December 1955. p. 1.

هذا المجتمع للتغيير وإعادة البناء ، على شرط أن ينتقى عن هذه التربية عناصر وصفات وأن تتوافر لها كيفيات وإمكانات [١] . فما هى هذه الكيفيات والإمكانات وما هى هذه السلبيات .

أهم الكيفيات والإمكانات :

لقد أصبحت من المسلمات الهامة فى حضارة الربع الأخير من القرن العشرين أن أى نظام من النظم الاجتماعية لا يمكن له أن يؤدى دوره بمواصفات عصرية إلا فى إطار علمى يضمه ويشمله ، ويحقق تكاملا بينه وبين النظم الاجتماعية الأخرى . كما لا يمكن لأى نظام اجتماعى عصرى أن يؤدى دوره كذلك إلا بمنهج وأسلوب علمى .

وعلى ذلك فإذا ما أريد للنظام التربوى فى المجتمع أن يقوم بدوره فى التعصير على أساس علمى ينتهج آخر ما وصلت إليه مناهج البحث العلمى فى دراسة المجتمعات وتحليل النظم بغية الوصول إلى قرارات مسئولة تتخذ لاختيار أفضل الأنظمة كبدائل للأنظمة القائمة تحقيقاً لهدف التغيير والتعصير الاجتماعى ، فلابد أن يحلل التعليم تحليلا علميا كنظام فى ضوء النظام الكلى للمجتمع ذى الأنظمة المختلفة . كما أن تغيير أى نظام تعليمى فى النظام التعليمى الكلى للمجتمع المصرى لابد وأن يحلل فى ضوء « الكل التعليمى » وهو النظام التعليمى العام [٢] .

وبعد أن يتم لهذا التعليم تحليل علمى على هذا النحو فإنه يواجه بمشكلة أخرى تتطلب حلا حاسماً حتى لا يعمل فى فراغ . وهى مشكلة تثور حول تعصير التعليم فى مجتمع متخلف ، والتى تصاغ على النحو التالى : هل يمكن للتعليم أن يأخذ بأسباب المرحلة العصرية ، وبالمناهج العلمية ، دون أن تأخذ النظم الاجتماعية الأخرى فى المجتمع بهذه الأسباب وبتلك المناهج .

وفى ضوء التحليل السابق يمكن القول : إن الأنظمة الاجتماعية بتداخل مدخلاتها ،

---

(١) محمد أحمد الغنام « مسئولية التربية فى تذويب الفوارق بين الطبقات » مقال فى صحيفة التربية - أبريل ١٩٦٠ . القاهرة ص ٩ .

(٢) محمد أحمد الغنام « تحليل النظم Systems Anaiysis » المركز الإقليمى لتخطيط التربية وإدارتها للبلاد العربية ببيروت . الدورة المتقدمة الثانية لسنة ١٩٧١ . ص ١٥ - ١٦ .

ومخرجاتها مع بعضها بعضا [١] وبتفاعلها مع بعضها بعضا لا يمكن أن تتم (عصرية) أى منها دون أن يحدث ذلك تأثيراً فى الآخر. ومع ذلك فإن هذا التأثير قد يأخذ مسارات غير طبيعية إذا لم « تحلل الأنظمة » الاجتماعية فى المجتمع كله تحليلا علميا بحيث تكشف أنسب وأفضل الأنظمة البديلة ، بمنهج تحليل النظم بحيث يكون العائد النهائى أو الحصيلة النهائية فى المجتمع ككل بأنظمته المختلفة استبطان « المرحلة العصرية » بكامل أبعادها : وبحيث تحدث أقصى معدلات التعصير نفسها – بالقياس العلمى لمخرجات الأنظمة – بأسرع وأدق وأقل جهد وزمن ممكن . وذلك بفعل تهيئة الظروف المناسبة للتفاعل الاجتماعى والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية كلها . والعوامل الحاسمة والمؤثرة فيها . وهى تلك العوامل التى يبرزها منهج تحليل النظم تحليلا علميا دقيقاً . ويحدد على أساسها الأولويات ، والاستراتيجية العامة للتغيير .

وإذا ما تساءلنا عن الحدود التى يجب أن تلعب فيها التربية هذا الدور التأثيرى الفعال فى قيادة التغيير فعنى هذا أننا نتساءل عن حدودها فى بناء القوى البشرية للأنظمة الاجتماعية لهذه الدولة العصرية بناء عصريا على أسس علمية ، أى أننا نتساءل عن علمية التربية ، وهى علمية المدخلات التربوية كلها من مدرسين ، وتلاميذ ومناهج ، وطرق ، وكتب ، وأساليب ، ومناشط . كما نتساءل عن المخرجات التربوية التى تغذى وتدخل فى بناء الأنظمة الاجتماعية كلها ، والتى تعتبر مدخلات لهذه الأنظمة سواء تمثلت هذه المخرجات فى كم أو فى كيف بشرى . ذلك لأن ما يعتبر مخرجات للنظام التربوى من خريجيه فى المراحل المنتهية المختلفة من الابتدائى حتى نهاية الدراسات العليا يعتبر مدخلات للأنظمة الاجتماعية الأخرى . فما يخرجه النظام التربوى ما هو إلا القوى البشرية التى تأخذ مواقع مختلفة ، وتؤدى أدواراً وظيفية ، ومهنية ، واجتماعية ، واقتصادية على امتداد الأنظمة الاجتماعية الأخرى من اقتصادية ، وسياسية ، وعسكرية ، ودينية ، وأسرية . . إلخ .

وهذا لا ينفى ، بل على العكس يؤكد أن هذه الأنظمة بدورها ذات مسئولية فى التعصير ، وذات مخرجات تعتبر مدخلات أساسية للنظام التربوى ، كما قلنا من قبل ، فمخرجات الأسرة من أطفال هم مدخلات النظام التربوى . وتمويل التعليم ، وهو ضمن مدخلاته الرئيسية هو فى الوقت نفسه من مخرجات النظام الاقتصادى فى الدولة . . وهكذا

(١) Don Adams. Education and Modernization in Asia. London 1970.

فكل نظام على هذا النحو يضطلع بعبء وبمسئولية فى البناء الاجتماعى والاقتصادى ككل .

ومن هنا نصل إلى نتيجة أساسية توضع أمام المسئولين عن صنع القرارات ؛ ومؤداها أن الأنظمة الاجتماعية منفردة ومجتمعة لابد أن تتحمل مسئولياتها فى تعصير الدولة على أساس من الدراسة العلمية التى تحدد الاستراتيجيات الهامة والعوامل الحاسمة فى عمليات البناء العصرى لهذه الدولة .

أهم السلبيات التى يجب أن تتحرر منها التربية لكى تستطيع قيادة التغيير أو على الأقل تستجيب لمطالبه :

ولكى تستجيب الأنظمة الاجتماعية فى الدولة لاتجاهات التعصير يجب أن تستهدف وتستبطن خصائص العصر (كما سنذكر فيما بعد) وكلها ذات منطلق وخصائص ومناهج علمية .

ولكى تستجيب التربية فى الدولة لاتجاهات التعصير لزمها هى الأخرى أن تستبطن خصائص التربية العصرية (كما سنذكرها فيما بعد أيضاً) ، وهى الاخرى ذات منطلق وخصائص ومناهج علمية . وأن تنتفى عنها عناصر وصفات كما قلنا من قبل . فما هى هذه العناصر والصفات التى ينبغى أن تنتفى عنها ، وما هى شروط وتحفظات استبطان التربية للخصائص والمقومات العصرية ؟

أولا : لعل أهم سلبية فى التعليم المصرى الراهن هو أنه تنقصه وحدة الفلسفة كما تنقصه عناصر وكيفيات الوحدة الثقافية المتكاملة . فتعليمنا خليط من عناصر تنتمى إلى أكثر من تعليم . وهو بهذا يفتقد القوة الدافعة والفعالة فى إحداث التغيير . بل إن احتمال إسهامه فى تعويق مسيرة التقدم أكبر من احتمال إسهامه فى تسييرها وقيادتها[1] .

ولا يمكن للتعليم المصرى أن يحقق دوراً فعالا فى التغيير والتعصير الجاد إلا إذا كان هو مشبعا فى سياسته ، وتخطيطه ، وتنظيمه ، ووجهته ، وأهدافه ، وإدارته ، ومحتواه الحقيقى والفعلى بالقيم التى تجعله قادراً على أن يستجيب بيسر لمطالب المجتمع فى التعصير ، خاصة

---

(١) محمد أحمد الغنام ، مسئولية التربية فى إذابة الفوارق بين الطبقات . مقال بصحيفة التربية . عدد أبريل ١٩٦٢ . ص ٩٣ - ٩٨ .

إذا ما توافرت له الإمكانات المادية والبشرية والحرية الكافية لترويد إرادته الواعية [١] .

ثانياً : إن تعليمنا لم يستبطن خصائص العصر بصدق ووعى وفعالية : فلم يستبطن الديموقراطية والحرية فى أبعاده المختلفة التنظيمية والإدارية . كما لم يستبطنها فى وضع المناهج ، وطرق التدريس وما إلى ذلك مما نشهده جميعاً [٢] .

ولم يستبطن التخطيط العلمى بمناهجه الشاملة التى تربط بينه وبين قطاعات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية المختلفة [٣] .

– ولم يستبطن العلم والتكنولوجيا استبطانا عصريا من شأنه أن يخرج عباقرة ومبدعين ومستكشفين وتطبيقيين يفيدون المجالات التكنولوجية العصرية على مستوى البلاد المتقدمة [٤] .

– ولم يتمثل ويهضم الإدارة العصرية بتكنيكاتها المختلفة . ولم تصبح أسلوباً واقعيا فى إدارة شئوننا ومؤسساتها التربوية المختلفة فى هذا المجتمع [٥] .

ويهمنا هنا أن نناقش كيف يمكن لتعليمنا أن يستبطن خصائص التعليم العصرى .

كيف تصبح الديموقراطية موجها تربويا ؟

لكى تكون الديمقراطية أسلوب حياة فى واقعنا الاجتماعى ، فينبغى أن تكون موجهة لفكرنا وواقعنا التربوى . ولكى تنى التربية بمطالب هذه الديموقراطية ، عليها أن تحقق أهدافاً تعليمية تتصف بالشمول والتنوع . وأن تتسع الفرص التعليمية لتشمل المجتمع كله . وهذا يقتضى التفكير فى أن يتحقق ذلك دون أن نعانى نقصاً فى الكيف ، وهو ذلك النقص الذى يضر بجميع الأهداف .

وشمول الأهداف التعليمية تفرض أن يكون الفكر التربوى ، والواقع التربوى كذلك متسقاً متكاملا شاملا ، ومحققا لمطالب الديمقراطية العصرية فى التعليم من الحضانة إلى التعليم العالى . وإذا كان نظامنا التعليمى لا يشمل حتى الآن مدارس للحضانة ورياض الأطفال ، وإذا كان النظام المدرسى عندنا لا يفى باحتياجات هذا النوع الهام من التعليم ،

---

(١) مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

(٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) : انظر فى تفصيلات هذه الموضوعات رسالة الدكتوراه : التربية لدولة عصرية . دراسة اجتماعية فلسفية لمسئولية التربية فى بناء الدولة العصرية ، إعداد محمود السيد سلطان ١٩٧١ ١٩٧٢ الفصل الخامس .

فإن ذلك يتطلب تفكيرا جديا فى إعطاء أولوية له ، لأن الدول العصرية لا تهمل هذا النوع من التعليم ، ونعتبره كما يعتبره التربويون وعلماء النفس أساساً هاما لبناء البشر على أنماط سلوكية عصرية .

كما يتطلب أن يكون فكرنا وواقعنا التربوى ككل فكر تربوى عصرى قادراً على إتاحة فرص تربوية لكل أفراد المجتمع دون ما عوائق من أى نوع سواء أكان الفرد عبقريا أم ضعيف عقل ، وتربيتنا إذا كانت قد بذلت بعض الاهتمامات بتربية المتفوقين إلا أن هذه الاهتمامات تعتبر دون المستوى الذى يتطلبه تعصير المجتمع . والعبقرية إذا كانت رعايتها مهمة فى أى مجتمع إلا أنها تأخذ معنى أكبر فى مجتمع يتعصر ، لأنها تنقل ثقافة المجتمع وحضارته من طور التقليد والاقتباس والمعايشة الطفيلية إلى طور الابتكار والاختراع والخلق . وهى أمور هامة جدا فى خلق الدولة العصرية التى تنتهج العلم وتطبيقاته كأساليب حياتية ، لأن أساس العلم والتكنولوجيا الإبداع . ووسيلة ذلك اكتشاف العبقرية وتنميتها .

وإذا كانت بلادنا ككثير من البلاد النامية أو المتخلفة ، فقيرة فى الموارد فمن الممكن أن تصبح غنية بالمواهب . فالموهبة – موجهة علميا إلى العلم – أثمن ما يملك الوطن [١] والعلم استثمار بشرى ذو عائد مرتفع [٢] خاصة إذا سلكته العبقريات ، واستطاع المجتمع أن يفسح لها المجال ، وأن ينتقيها دون ما عائق من أى نوع .

أما تربية ضعيف العقل والمعوقين فهى مؤشر ديمقراطى هام ، وذلك لأن تربية المعوق بجانب أنها تمثل خلق قوة اقتصادية من المعوقين والعاجزين حينما يمكن تدريبهم على مهارات وفنون وصناعات تناسب إمكاناتهم ، وبجانب أننا نزيل ، بهذا التدريب ، معوقا اجتماعيا لدى مجتمع العاديين الذى ربما كان المعوقون سبباً أساسيا فى تعويقه عن تأدية وظائفه الأساسية فإننا بتعليمهم نحقق مبدأ إنسانيا ديمقراطيا فى المجال التربوى وفى المجال الاجتماعى بوجه عام .

وهذا النوع من التربية الذى يحتل جزءاً هاما فى كل بلد عصرى فكرا وواقعا لا تبذل من أجله الجهود المناسبة لمتطلباته فى بلدنا .

---

(١) جمال حمدان ، الفكر المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(٢) Frederick Harbison, Ibrahim Abdelkader Ibrahim, Human Resources For Egyptian Enterprise, New York, 1958. p. 5

Op. cit, T. Shultz.

وكما تفرض الديمقراطية إتاحة وتكافؤ الفرص التربوية فى كافة أشكالها وعلى جميع مستوياتها فلا يكون هناك عائق أمام تعليم أبناء المجتمع بسبب الجنس أو الطبقة أو الإمكانية المالية فإنها تتطلب تكافؤ الفرص بين البيئات المختلفة بحيث لا يحرم منها شخص بسبب النشأة فى بيئة معينة كالبيئات الريفية النائية .

ورغم أن الميثاق قد نص على ضرورة تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص [١] فى مجالات متعددة فى المجتمع مثل التعليم ، ومثل تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، وبالنسبة للقرية ومساواتها مع المدينة ، إلا أن الواقع يؤكد أن هذا المبدأ دونه عقبات حالت دون تحقيق هذه المجالات المختلفة . فى مجال التعليم نذكر على سبيل المثال ما تؤكده الإحصاءات من أن بالقاهرة وحدها ٣٤٪ تقريباً من مجموع تلاميذ المرحلة الثانوية العامة ، و ٢٥٪ من مجموع تلاميذ المرحلة الإعدادية و ١٩٪ من مجموع تلاميذ المرحلة الابتدائية فى جمهورية مصر كلها سنة ١٩٦٨ / ٦٩ [٢] علاوة على تكدس الجامعات والمعاهد العليا بها فى حين أن تعداد القاهرة هو حوالى ٥,٥ ملايين نسمة أى حوالى $\frac{1}{6}$ سكان الجمهورية .

وإن دلت هذه النسب على شىء فإنما تدل على سوء توزيع الخدمات التعليمية بين العاصمة وبين بقية بلاد القطر وانتفاء مبدأ تكافؤ الفرص كما تدل إحصاءات التعليم فى المحافظات المختلفة على مثل هذه الظاهرة [٣] . هذا فضلا عن أن ظاهرة الدروس الخصوصية المنتشرة بين القادرين على دفع نفقاتها ، ووجود المدارس الخاصة ذات المصروفات المرتفعة تذهب بكثير من جوانب مبدأ تكافؤ الفرص فى مجال التعليم .

---

(١) ينص الميثاق على أن حق كل مواطن فى العلم بقدر مايتحمل استعداده ومواهبه هو أحد الحقوق الأساسية لكل مواطن . (الميثاق ، ص ٨٦) .

ويقرر أن التخطيط الاشتراكى الكفء هو الذى يكفل ضمان توزيع الخدمات الأساسية باستمرار ورفع مستوى مايقدم منها بالفعل ومد هذه الخدمات التى افترسها الإهمال والعجز نتيجة لطول الحرمان الذى فرضته أنانية الطبقات المتحكمة المستعلية على الشعب المناضل (الميثاق ، ص ٦٣) . كما نص على أن وصول القرية إلى المستوى العصرى ليس ضرورة عدل فقط ولكنه ضرورة أساسية من ضرورات التنمية من غير تعال عليها ومن غير خيلاء (الميثاق ص ٧٦) . كما نص على أن « المرأة لابد أن تتساوى بالرجل ولابد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة » (الميثاق ص ٧٦) .

(٢) وزارة التربية والتعليم القاهرة - الفكرة الإحصائية سنة ٦٨ / ٦٩ ، ص ٦ ، ١٨ ، ٢٤ .

(٣) محمود السيد سلطان : دور التربية فى خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .
رسالة ماجستير - استنسل ١٩٦٧ ، من المرجع الأسبق (المفكرة الإحصائية - وزارة التربية والتعليم ص ٢) .

وفى مجال مساواة المرأة بالرجل فقد وجد أن واقع التعليم يعطى صورة تبعد بالمجتمع بعيداً عن تحقيق هذا المبدأ فى وقتنا الحاضر. فنسبة البنات إلى جملة المقيدين فى جميع مراحل التعليم (دون العالى) لم تتجاوز ٣٠٪[١] .

كما تفرض الديمقراطية أسلوبا ديمقراطيا فى إدارة التعليم وتسييره ، وفى إدارة الفصل والتدريس فيه ، وفى العلاقات بين المدرس والتلميذ ، وبين العاملين فى المدرسة وبين موجهيهم . أو ما إلى ذلك من المبادئ الديمقراطية التى أوضحها الفكر الديمقراطى فى المجال التربوى ، والتى يكون من تحصيل الحاصل ذكرها والتعرض لها هنا .

ولنا فى التجارب التربوية العديدة التى توفر حرية التلميذ وشخصيته وتنميتها خير معوان . وهى تجارب اندرجت تحت ما سمى فى الفكر التربوى والواقع التربوى بالتربية التقدمية والتربية الحديثة . وهى تجارب قصدت واستهدفت تنمية ذكاء الإنسان ، وإطلاق حريته لكى يبدع وينتج دون ما أى ضغط من سلطة أخرى ، اللهم إلا توجيه ذوى الذكاء الأكثر نموا بالخبرة والتجربة الحياتية .

وليس من الغريب أن تكون هذه الأنماط التربوية تطوراً لما نادى به فيلسوف الحرية الناقد الاجتماعى الحر روسو الذى نادى بحرية التلميذ حرية تكاد تكون مطلقة فى التعليم والتربية بوجه عام .

إن التربية الديمقراطية بذلك إذا أردنا بناءها فى بلدنا فلابد أن يتوافر فيها ولها ما يأتى

١ – بناء مجتمع تربوى ديمقراطى داخل النظام التربوى كله من قاعدته إلى قمته يتحقق فيه تكافؤ الفرص التربوية بكل معنى . وتتحقق فيه الديمقراطية بكل معنى . . وتتحقق فيه حرية الفرد وحرية الكلمة سواء على المستوى الإدارى أو التنظيمى أو التوجيه والاختيار . وسواء على مستوى العملية التعليمية ذاتها بحيث تكون مشبعة بكل عناصر غنية بمبادئ الديمقراطية وأساليبها .

٢ – تقتضى العملية التربوية الديمقراطية فى حد ذاتها إنماء أمرين فى غاية الأهمية بالنسبة للمجتمع العصرى :

الأمر الأول : إنماء الذكاء ،وهذا يقتضى التفكير فى عمل البحوث للوصول إلى خبرات ومناهج وأساليب تنميه وتعلى من شأنه . وكل عمل تربوى أو كتاب تعليمى أو

---

(١) وزارة التربية والتعليم . المفكرة الإحصائية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢ .

طريقة تعليمية لا تنمى الذكاء بحيث تجعله فى المقام الأول يجب أن يخلى سبيلها فى العملية التربوية والتعليمية .

الأمر الثانى : إنماء الأسلوب العلمى فى التفكير وفى حل المشكلات ومواجهة المواقف العلمية والاجتماعية .

٣ - تحويل التعليم فى المجتمع إلى قضية شعبية يسهم فيها الشعب بجهوده ، وقضية سياسية تكرس لها الجهود السياسية كلها - على نحو ما سنفصل فيما بعد - بحيث يتلاقى الجهد التربوى مع الجهد الشعبى والجهد السياسى لإنجاح العملية التربوية .

كيف يصبح العلم وتصبح التكنولوجيا موجهين تربويين ؟

إن أحد المعايير الهامة التى تقاس بها عصرية أية دولة هو تطورها التكنولوجى ، وعلمية مجتمعها . كما أن هناك ارتباطا قويا بين التعليم وبين العلم والتكنولوجيا على اعتبار أن التعليم هو أداة نشر العلم والتكنولوجيا . ولذلك فأى جهود تبذل لتحقيق هذا المقوم الأساسى فى الدولة العصرية والمجتمع العصرى يجب أن تتجه أولا إلى التعليم وإلى فلسفتنا التربوية وسياستنا التعليمية ومناهجنا وطرقنا فى التدريس ونظامنا التعليمى . ونتدارك ما قد نجده فيها من نقص مسئول عن عدم علمية المجتمع ، وعن عدم الإفادة حتى الآن إفادة كاملة بالعلم كمنهج حياة[١] .

وإذا كانت دولتنا ليست غنية بمقياس المساحة والموارد فلنا فى المعجزة الألمانية مثل ودليل حيث حققت بمواردها الشحيحة ما لم يخطر على بال ، بفضل الثورة التكنولوجية عموما . ولعل أخطر نتائجها (كما يحدثنا الجغرافى « كول » أنها أثبتت أن الموارد الطبيعية لم تعد هى كل شىء فى التنمية الاقتصادية والمادية والعلم والتكنولوجيا هى اليوم المورد الأساسى والأخطر فى عملية التقدم والحضارة[٢] .

ويرى بعض العلماء أنه من ضمن الخطوط الرئيسية لمجتمع ما بعد التصنيع لسنة ٢٠٠٠ أن : « العامل الأول للتقدم سيكمن فى نظم التربية والتجديد التكنولوجى »[٣] . وتدل

(١) فؤاد زكريا ، العصرية وسبلها التربية ، مقال بمجلة الفكر المعاصر ، عدد خاص عن الدولة العصرية ، العدد ٤١ ، يونية ١٩٦٨ ، ص ٧ .

(٢) جان جمدان ، مرجع سبق (الفكر المعاصر ، يونيو ١٩٦٨) ص ٢٤

(٣) ج ج سرفان شرايبر ، التحدى الأمريكى ، ترجمة فيكتور سحاب ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ص ٤٧ .

التجربة ، دون استثناء ، على أن المخترعين يحتلون مراكز القوة فى الاقتصاد العصرى[١] .

وإذا ذكر العلم ، فلابد من ذكر العلماء . وإذا ذكرت التكنولوجيا والإبداع والاختراع فى مجالها فلابد من ذكر العلماء والتكنولوجيين أيضاً . وإذا ذكر كل هؤلاء فلابد من ذكر التربية والتعليم ، وثقافة المجتمع التى هيأت لهم نشأة علمية وتعهدتهم بالصقل والتهذيب وتعهدتهم بالرى من منبع علمى على يد مربين وعلماء عرفوا كيف يربى العلماء ، وكيف ينمو العلم ، وكيف تهيأ البيئة العلمية التى ينشأ فيها هؤلاء العلماء .

لابد إذن من أن تكون التربية هى المجال الحى النشط الذى تتفاعل فيه عقول النشء ، وتظهر فيه العبقريات التى تقود عالم المخترعات والمكتشفات إذا كنا حقا نريد أن نصبح عصريين فى عالم حضارته العلم والتكنولوجيا المعقدة .

ويكفى أن نتذكر دور المدرسة العليا Hochule فى ألمانيا منذ بسمارك والكلية التكنولوجية Technical college فى بريطانيا منذ الانقلاب الصناعى لنعرف ما وراء هذه الحضارة التكنولوجية العالمية المعاصرة فى البلاد المتقدمة من مؤسسات ومنظمات تربوية [٢] .

كما يكفى أن نتذكر أن الاتحاد السوفيتى ، والصين الشعبية ، وكثراً من بلاد العالم التى أرادت أن تلحق أو أن تسبق فى مضمار الحضارة العالمية المعاصرة قد انطلقت أساساً من منطلق التربية والتعليم ، بحيث يتبنى النظام التعليمى علماً قادراً على الحركة والتجديد . فلقد تفوقت الولايات المتحدة . وكذلك الاتحاد السوفيتى على أوروبا علمياً وتكنولوجياً لأنهما كانتا أسبق إلى التخلص من النظرة التقليدية العتيقة شبة الإقطاعية ، وشبه الكهنوتية إلى العلم [٣] .

ولذلك فنحن فى حاجة إلى زلزلة لنظرتنا وتقيمنا للعلم . نحن بحاجة إلى جيش من العلماء على المستوى العالمى ولدينا الفائض الضخم الذى يوفر مثل هذا العدد . ولكن النواة المتواضعة حجماً ونوعاً التى نملكها اليوم تبتعد كثيرا عن هذا الهدف . وذلك لأن انتخابنا الاجتماعى ، ومجموع مثلنا ومعاييرنا وقيمنا ونظراتنا الاجتماعية ، انتخاب غير علمى ، انتخاب تقليدى سابق لعصر العلم ، فلا يعطى العلم أو العمل فيه قيمته

(١) مرجع سابق ص ٥٦ .

(٢) ، (٣) جمال حمدان ، مرجع أسبق ص ٢٤ .

الاجتماعية [١] . أو المادية .

وهنا يجب أن تلعب الحوافز دوراً رئيسيا بالنسبة للعلماء ، فإذا قلنا إن العلم مفيد جدًّا للمجتمع ، ولكنه غير مفيد تماما للعالم ، فقد تجنبنا الحقيقة والصواب .

ولكن يجب أن لا تتغير نظرة المجتمع إلى العلم من الخارج فقط ، بل يجب أن تتغير نظرة مجتمع العلم نفسه من الداخل ، وأن يكون معيار الجدارة والكفاية Meritocracy هو المعيار الوحيد فى مجال العمل به وقيادته [٢] » .

غير أن العلم فى حياة الدولة العصرية لا يقتصر موضوعه وأهميته على مجال العلماء والتكنولوجيين . . وإنما هو مجال اجتماعى عام ، ونشاط إنسانى دائم يعم المجتمع كله ، مؤسساته ومنظماته وجماعاته وأنماط سلوك أفراده ، وهذه عملية تربوية بالدرجة الأولى .

والمسألة إذن ليست مجرد إنتاج علماء وفنيين ، بل إنتاج قوى بشرية متعلمة تعليما علميًّا وتقنياً تستطيع أن تعيش بأمان عيشة سليمة فى عالم من نوع جديد . ولقد أضافت إنجازات العلم بعداً جديدا إلى الجدل الدائر بين المربين العالميين عن أهداف التعليم . ففريق العصريين يطالب بمراجعة شاملة لتلك المفاهيم الكلاسيكية عن الإنسانيات والثقافة . وأن توضع العلوم والتكنولوجيا فى مكانها الصحيح وأن تلقى ما تستحقه من اهتمام فى أى منهج إنسانى .

وفريق التقليديين يقاومون هذا الرأى ، ويصرون على المحافظة على المفاهيم القديمة وصون روح الإنسانيات [٣] .

ومهما يكن من خلاف بينهما إلا أن التربية المصرية إذا أرادت أن تواكب عصرها ، وأن يواكب المجتمع الذى أوجدها عصره أن تثور على كل أوضاعها التقليدية وأشكالها التى تتعارض مع العلم وثورته ومنهجه ، وتطبيقه العصرى وأن تكتشف العبقرية وتنميها . وهى فى هذا تصادف من التحديات التى لا يقدر على حلها إلا العلم التربوى نفسه وأبحاثه .

وإذا كانت أهمية الدور المسيطر للعلم وللتكنولوجيا فى حياة الأفراد ومجتمعاتهم قد تزايدت ، فهل تستطيع التربية أن تلاحق تزايد هذا الدور وأهميته . هل تستطيع المدرسة الثانوية مثلا أن تعد تلاميذها إعدادا مباشراً لأنواع العمل بحيث يلاحقون عالماً متغيرا

---

(١) مرجع سابق ص ٢٤ .

(٢) مرجع سابق ص ٢٥ .

(٣) ف . كومبز ، مرجع سابق ص ١٦٩ .

بسرعة وبدون توقف نتيجة لتأثير الظروف والتطورات الثورية والجذرية فى العلم والتكنولوجيا .

إن هذا السؤال لا يقلق المربين المهتمين بالتعليم المهنى والفنى فى المرحلة الثانوية فحسب ، بل إنه يتعدى ذلك فيجبرهم على إعادة النظر فى الأهداف التعليمية بغية التوصل إلى أهداف تعليمية جديدة ، ومنسقة بالنسبة للتعليم العام . وكذلك فيما يتصل بالدور الهام للرياضيات وللعلوم فى كل مستوى من مستويات التعليم بما فى ذلك مستوى تعليم الكبار [١] .

وقد اضطرت ضغوط التطورات العالمية المعاصرة للتعليم الثانوى أن يهجر اتجاهه التقليدى . فلم يعد منهجه الأكاديمى متوافقاً مع الحاجات الحقيقية للدولة العصرية ولا للطلاب أنفسهم [٢] . لم يعد تعليما أرستقراطيا يدخله طبقة مختارة من التلاميذ فى البلاد العصرية كما لم يعد ذلك النوع يعد للجامعة فقط وإنما اعتبرته البلاد العصرية تعليما عاما للجميع . وفى كثير منها اندمج الجانب العملى مع الجانب الأكاديمى . ففى الولايات المتحدة اعتبرته مثلا مرحلة عامة لجميع التلاميذ وأذابت فيه الهوة بين التعليم النظرى والتعليم الفنى فى مدرسة أطلقت عليها المدرسة الثانوية الشاملة . وفى الاتحاد السوفيتى وبلاد أوروبا الشرقية أدمجت أنواع التعليم الثانوى فى مدرسة العمل الموحد . وهكذا مما ذكرناه تفصيلا فيما سبق .

على أننا يجب أن نلاحظ أن الاتجاه إلى التكامل بين الجانبين النظرى والعملى فى التعليم الثانوى ليس معناه التركيز على جانب وإهمال الجانب الآخر . ولابد من توازن بين الجانبين . كما لابد من توازن بين الإنسانيات والعلوم فى هذا التعليم . وفى هذا يقول جيمس . د . كليان ، جر بصدد حديثه عن التعليم الأمريكى : « من الوهم أن نتصور أننا نستطيع تحقيق أهدافنا بتدعيم تعليم العلوم والهندسة دون تدعيم التعليم كله . وإذا كنا نواجه عجزا مستمرا فى العلماء والمهندسين بالولايات المتحدة فإننا فى نفس الوقت نواجه نقصاً فى الموسيقيين والشعراء والفلاسفة وعلماء السياسة وغيرهم من ذوى المواهب الخلاقة ، ولكى يحقق مجتمعنا إمكانياته إلى أقصاها لابد له من توفير أنواع كثيرة من المتخصصين ، ولابد

---

(١) ف . كومبز . مرجع سابق . ص ١٦٩ .

(٢) World Trends in Secondary Education. Unesco 1962.

من جعل نظام التعليم ينتج أنواعاً متعددة من القدرات » [١] .

إن كل هذه التجارب العصرية فى التعليم تعرض علينا إعادة النظر فى تعليمنا الثانوى : بنيته ، ونظامه ، وأهدافه ، ومحتواه ومضمونه ، وطريقة إعداده لطلابه خاصة وأننا نتطلع إلى أن نواكب الحضارة العصرية بمكوناتها الحضارية والتكنولوجية .

إن مجالات العمل والمهن المختلفة فى هذه البلاد العصرية يحدث فيها تغيرات مستمرة نتيجة للاكتشافات والمخترعات التى تحدث فيها باستمرار كثمرة للبحث العلمى ونتيجة للتكنولوجيا . وما دمنا نريد بناء مثل هذا المجتمع العصرى فلابد من أن نوفر لأولادنا ذلك النوع من التعليم الذى يمكنهم من تعلم المهارات الجديدة التى تجلبها هذه التغيرات .

وحيث إن البرامج الخاصة بإعادة تدريب العاملين الذين ينقلون إلى أعمال جديدة تبنى على قدر من العلوم والتكنولوجيا الحديثة ، والتى لا يستطيع فهمها واستيعابها أولئك الذين يقل تعليمهم عن مستوى التعليم الثانوى [٢] ، فلابد من أن نمد التعليم العام إلى مستوى التعليم الثانوى إذا كنا نريد حقا بناء الدولة العصرية المؤسسة على العلم والتكنولوجيا .

وهكذا نرى أن مد سن التعليم إلى ١٦ و ١٧ سنة ضرورة تحتمها الديمقراطية وتحتمها فى نفس الوقت طبيعة المجتمع العصرى القائم على العلم والتكنولوجيا العصرية .

وحيث يعتبر العمال غير المهرة والعمال غير المتعلمين خسائر بشرية فى المجتمعات الصناعية [٣] . فلابد من تعويضهم بتعليم شكلى ، وإذا كنا نريد أن نصبح مجتمعاً عصريا فلابد من أن نواجه هذه المشكلة بحلها ويتطلب هذا من جهازنا التربوى أن يكون مرناً يسمح بإلحاقهم بالمدارس للحصول على قدر من التعليم يمكنهم من فهم أسس الصناعة الحديثة ، والمدنية العلمية والتكنولوجية .

فهذه المرونة فى الواقع تسمح للذين أرغمتهم ظروفهم على عدم متابعة الدراسة صغاراً

---

(١) James R. Killian, Jr., "New Goals for Science and Engineering in Education", ch. F., in Paul R. Hanne (ed). op. cit. p. 73. Referred to by F. Harbison, charles Myers, Ed. Manpower and Economic Growth. McGrow Hill, 1964.

(٢) فريدريك هاربسون ، وتشارلز ميرز ، القوى البشرية ـ والتربية ، والنمو الاقتصادى ، ترجمة إبراهيم حافظ ، ص ٢٧٢ .

(٣) مرجع سابق ، ص ٢٧٢ (والمفكرون الغربيون يطلقون هذا المصطلح على الدول العصرية المتقدمة) .

أن يلتحقوا بالتعليم كباراً متى سنحت الفرصة لذلك على طريق البرامج النظامية أو برامج المراسلة والانتساب وغيرها .

وإذا كانت قضية التعليم بوجه عام قضية ملحة فإن قضية التعليم الجامعى بوجه خاص لا تقل إلحاحاً ، لأن تطورات العصر تتصف بالعمق ، والسرعة ، والشمول ، ويخشى على جامعاتنا ألا تستطيع اللحاق بهذه التطورات إذا أعدت خريجيها على مستوى أقل من مستوى متطلبات هذا العصر .

إن قضايا التعليم الجامعى وقضايا البحث العلمى متعددة وكل منها يحتاج إلى دراسة وتخطيط وثورة لمسايرة متطلبات هذا العصر . ويكفى أن نشير إلى أن هذا التعليم الجامعى عليه أن يواجه مشكلة استيعاب مالا يقل عن مليون طالب جامعى عام ٢٠٠٠ ، أى ما يوازى ٢٠ من كل ألف من السكان وهو عدد سيكون بلا شك متخلفاً بمقاييس ذلك الزمن أيضا (١) .

ولابد أن ندرك أيضا أن قضية تطوير التعليم فى مجتمعنا — على نحو ما سنذكر فيما بعد ليست قضية كم بقدر ما هى قضية جوهر التعليم ، ومضمونه ومحتواه ، وطرائقه ، وفعاليتها وكفايتها فى خلق القوى البشرية العلمية والتكنولوجية القادرة على الإسهام فى بناء المجتمع العصرى والاستمرار به فى المستقبل ذى الأبعاد المجهولة .

إن كل هذه الأمور تبقى معلقة فى الهواء لا ترسب فى أعماق التعليم وتنطلق به انطلاقة قادرة مالم تتغير نظرتنا للعلم وللعلماء وللتعليم . ولا تكون النظرة نظرة رثاء أو عطف أو حتى مجرد التقدير الأدبى . فلسنا فى عصر الرومانسيات ولكنها انطلاقة مادية تسندها وتساندها نظرة التقدم .

هى انطلاقة التمويل للاستثمار فى البشر تعليما وتربية ، وللاستثمار فى التكنولوجيا علماً وعلماء . ومن المعلوم أن سياسة التمويل والاستثمار الرشيد تمثل تحديا ضاغطاً لقدرة الدولة فى تحديد أولوياتها واتجاهاتها ، كما أنه من المعلوم أيضا أن الاستثمار فى البشر هو أهم المعايير التى تدل على رشاد سياسة التمويل .

وإذا ناقشنا ماننفقه فى مجال البحث العلمى وقارناه بما ينفق فى البلاد العصرية فوجدناه

---

(١) رشدى سعيد « تحدى العصر وتجنب أن تتحول كتلة المنتجين إلى مستهلكين » بحث نشر بجريدة الأهرام اليومية عدد ٣٠٥٥٨ ، السنة ٩٦ ، بتاريخ ١٩٧٠/٨/١٠ ، ص ٧ .

ضئيلا ، وأن ما ننفقه على التعليم لا يتعدى ٥٪ من الميزانية العامة للدولة فى حين أنه فى البلاد العصرية يصل إلى ١١ ، ١٣٪ ، فإن ذلك يحتاج إلى إعادة النظر فى إعادة توزيع استثمارات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وهذا ما نعنيه بأن تكون النظرة إلى التعليم والقائمين به ذات أساس مادى واقتصادى .

هذه بعض قضايا تثيرها التطورات العلمية والتكنولوجية . على أن التكنولوجيا فى مجال التعليم ذاته قد استجابت فى المجتمعات العصرية بشكل أحدث ثورة فى مجال التعليم فيما سمى بالثورة التكنولوجية فى مجال التعليم . وهذه الثورة تثير بالنسبة لنا قضية فى مجال التعليم سوف نناقشها فيما يلى :

التكنولوجيا التعليمية :

لم تعد المسألة تكنولوجيا أو لا تكنولوجيا فى مجال التعليم وإنما أصبحت التكنولوجيا التعليمية ضرورية ، بعد أن أصبحت الطرق والوسائل التعليمية التى انحدرت إلينا من الماضى غير ملائمة لحاجات التعليم وغير كافية لتحقيق أهدافه العصرية . فالتكنولوجيا التعليمية فى الوقت الحاضر هى فى أساسها نتاج لتيار تاريخى عظيم مملوء بالمحاولة والخطأ ، وبومضات عقلية من جانب عظماء المفكرين والعباقرة ، والممارسة الطويلة ، والتقليد والعادات التى انحدرت إلينا عبر العصور [١] .

وفى مؤتمر للمربين عقد بالهند ، تحدث « مالكولم » نائب المدير العام لمنظمة اليونسكو عن طرق التدريس فقال : إننا إذا نظرنا إلى المدرسة او الكلية كمشروع عمل اقتصادى فسوف لا تسرنا الصورة ، إذ نجد فى التعليم تكنولوجيا قديمة وبالية للغاية لا يمكن أن تعيش لحظة واحدة فى أى قطاع اقتصادى آخر . فطرق التدريس وأساليب التعليم قد أصابها الصدأ ، وأصبحت غير مأمونة العواقب ، بل لقد ولى زمانها ومضى كما أكد دكتور «مالكولم» العلاقة بين جمود التكنولوجيا التعليمية والمستوى المنخفض للتعليم ومناهجه ، الذى نجده على وجه أخص فى كثير من الدول النامية فقال : إن أساليب التعليم التقليدية بقيت فى المدارس كما هى ، طريقة الحفظ الآلى وأسلوب حشو الأذهان ، ومتى مضى تهديد الامتحان نبس كل هذه الأشياء غير النافعة .

(١) ف . كومبز . مرجع سابق ، ص ١٨٦ .

إن نظام الامتحان ليس أسلوبا سليما لتقييم شخصية التلميذ واستعداداته الذهنية وقدراته على التفكير المستقل والتأمل والاستدلال. إن الامتحان تحد لسعة الحيلة فى الخداع وإظهار لمهارة أو براعة سطحية [١] .

وفضلا عما يترتب على الامتحانات من أضرار على شخصية الإنسان فإن الطرق التقليدية لها مغزاها على بناء البشر . فهى لا تنمى فى الإنسان قدرة الخلق والإبداع والتفكير الناقد والرشد . وهذه أمور أساسية بالنسبة لمواطن يبنى الدولة العصرية ويعيش فيها .

والتكنولوجيا التعليمية بمفهومها الشامل كطريقة منظمة لتخطيط وتنفيذ وتقييم كل عملية تعليمية فى نطاق أهداف معينة مؤسسة على البحث فى التعليم البشرى ووسائل الاتصال ، وباستخدام مزيج من مصادر بشرية وغير بشرية لتحقيق تعليم أفضل وأكثر فاعلية [٢] هى المنهج الأساسى لتطوير التعليم ونقله من شكله ومحتواه وطرقه التقليدية إلى شكل ومحتوى وطرق حديثة مثمرة وفعالة فى بناء البشر.

ولا تصبح القضية بالنسبة لنا موارد مالية لتمويل التعليم ولإمداده بأجهزة تكنولوجية غالية الثمن نشتريها من الدولة المخترعة والمنتجة لها . ولكن تصبح القضية ابتداع طرق ووسائل وأداة تعليمية تحقق أهدافا عصرية فى التربية فتتقدم التربية ويتقدم المجتمع [٣] .

غير أننا لا نستطيع أن نتجاهل ما تحتله الأجهزة التكنولوجية من مكانة فى تكنولوجيا التعليم العصرية . وإلا لكنا « مكابرين » فالآلة والجهاز التكنولوجى هى شىء متواكب مع الطرق العصرية فى التعليم إذ لا يمكن أن نطبق التعليم المبرمج مثلا أو أن نحدث ثورة فى النظم التقليدية وإعداد الفصول التقليدية واستخدام المعلم والأدوات التقليدية دون أن نحل محلها أجهزة قادرة على الإتيان بفعاليات أكثر ثورية وأكثر برهانا عليها . حتى يمكن القول بأن هذه الأجهزة هى خير المؤشرات لمدى ثورية التعليم [٤] وعصريته . ومن هنا لزم وعلينا أن نواكب العصر فى ابتداعاته التكنولوجية فى مجال التعليم ، وأن تكون هذه التكنولوجيا ،

---

(١) Malcolm Adiseshiah, Education and National Development, in Unesco Chronicle, XIII. No. 2 (Paris: Unesco. February 1967. Referred to by Ph. coombs, The World Educational Crisis, Asystem Analysis.

يرجع إلى الترجمة العربية ص ١٩١ ، مرجع سابق .

(٢) سعد مرسى أحمد . التكنولوجيا والتعليم ، مقال فى مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٧٢ فبراير ١٩٧١ ، ص ٦٦ .

(٣) ، (٤) مرجع سابق .

سواء بمعناها «الأدواتى» إن صح هذا التعبير أو بمعناها الشامل الذى سبق ذكره ، هى محور الثورة التعليمية والتقدم التعليمى .

ومن المشكوك فيه أن نعثر على طريق واحد أو أسلوب فريد أو أداة يمكن بمفردها أن تحقق نتائج أفضل من النتائج غير المرضية لعملية التعليم والتعلم التقليدية ، ومن ثم ينبغى أن نتوصل إلى مركب من الأشياء والطرق والأساليب الجديدة للتدريس والتعلم التى تقوم بعمل أفضل مما يؤدى الآن وبفارق كبير له مغزاه ، ودون تكلفة باهظة . . وبالتأكيد فإن النظام التعليمى ليس فى حاجة لأن ينعم فى بحبوحة من المال لكى يرفع ويحسن كفاية عملية التعلم به فى الناحية البيداجوجية والاقتصادية . . وهو ليس فى حاجة لكى يحقق ذلك إلى أن يحصل على أفضل المعلمين فى العالم .

. . . ويمكن أن نحقق أفضل الثمار إذا وفرنا أماكن تعمل على إيجاد أساليب ونظم جديدة للتعليم وابتكار مواد وأدوات جديدة للتعلم لازمة لإخراج هذه الأساليب والنظم الجديدة للتعليم إلى حيز التنفيذ والتحقيق [١] . وهذا يقتضى إجراء البحوث العلمية فى مجال التربية . ووضع مخصصات كافية لها . إذ لا يزال البحث العلمى الذى ولى عناية فى ميدان الصناعة ، والزراعة ، والتجارة يمشى الهوينا فى الميدان التربوى .

فتغير بنية التربية التقليدية . وكسر حدودها التقليدية يحتاج إلى مزيد من البحث العلمى لإرساء ثورتها على أساس من الحقيقة ، خاصة وأن البحث العلمى فى مجال التربية فى منطقتنا العربية كلها لا فى مصر وحدها ، لا يزال فى طفولته الأولى ، وبخاصة فى مجال الإدارة ، والتمويل ، اللتين لهما أهمية حاسمة فى العملية التربوية [٢] .

---

(١) For a discussion of What is ment by "New systems of Learning" See Schramm et al. op. cit., on Proposed centers for creating new learning System, See also wilbur Schramm. "The Newer Educational Media in the United States", apaper prepared for the Meeting of Experts on the Development and Use of New Methods and Techniques of Education, Paris, Unesco, March, 1962. Refer ed to by op. cit. (Dr. Coombs).

يرجع إلى الترجمة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(٢) Mohamed A., El — Ghannam. Financing education in the Arab States: A Survey of recent trends and Future prospects, IIEP occasional papers 20, Unesco: International Institute for Educational Planning. P. 1.

كيف نفيد من التخطيط فى تربيتنا فكرا وواقعاً ؟

إن التغيرات والتطورات السريعة التى يمر بها العالم فى مجال العلوم والصناعات والتكنولوجيا ، والنمو المطرد فى أعداد السكان وتنوع التوزيع فى الموارد البشرية والطبيعية خلقت ضغوطا وحتميات جديدة . واستحدثت مواقف تستدعى الدراسة والبحث ، وتقتضى وضع تخطيط شامل متكامل يكفل النمو المتناسق فى نواحى المجتمع المختلفة .

كما أن التخطيط التربوى ركن من هذا التخطيط الشامل . ولكى تحقق التربية أهدافها يجب أن تبنى فى تخطيطها على أساس احتياجات المجتمع التى تتطلبها الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تخلقها عمليات تعصير المجتمع ، وعلى أساس المواءمة بين متطلبات التنمية والتعصير وإمكانات المجتمع وحساب ما يلزم البناء الاجتماعى والاقتصادى فى المستقبل .

والتخطيط التربوى هو نقطة التحول فى الأساليب التربوية المتشابكة ، كما أنه الاستجابة المنطقية للاتجاه العام نحو التخطيط العام للتنمية والتعصير . وهوأداة ، وليس هدفا فى حد ذاته . تعكس الرغبة فى التغيير المنظم . كما أنه الاستراتيجية التى يستطع بها هذا التغيير أن يتحقق .

وهو القوة الدافعة التى تنسق وتوجه المكونات المختلفة للنظام التعليمى . كما تحقق الأهداف البعيدة المتفق عليها اتفاقا كبيراً . ولذلك فهو يتضمن تقديراً حقيقيا لوسائل التمويل فى المجتمع ، وتقييما للموارد البشرية ولمبانى المدرسية وللعوامل المختلفة التى يعتمد عليها فى نجاحه . فهو يقوم بعمل شاق بحيث يؤكد للتربية تناسقها مع نمط التغير . كما يؤكد فى نفس الوقت تقدميتها بدرجة كبيرة فى تخريج أنواع القيادات الاجتماعية والتكنولوجية ، والقوى البشرية المطلوبة ويؤكد فى نفس الوقت أنها تحفظ ثقافة المجتمع الذاتية وتنميها [١] .

ومن هذا نرى أن التربية بدون تخطيط عمل ارتجالى يتخبط ، لا يناسب بناء الدولة العصرية . ولا يحقق خصائصها ومقوماتها ، وكل مانوهنا به من نقائص سواء فى مجال التخطيط الشامل ، أو مجال التخطيط التربوى مسئول بدرجة ما عن سلبيات تجربتنا فى

---

(١) R. Diez– Hochleitner, "Educational Planning" in Economic and Social Aspects of Educational Planning, Unesco, pp. 86 — 87.

التحديث بوجه عام ، وعن إخفاق جهازنا التربوى وعما فيه من نقائص ، وما يسوده من أشكال تقليدية بوجه خاص .

وإذا أردنا أن نبنى تربيتنا على أسس تخطيط علمى فلابد أن تتحقق فيها مبادئ هذا التخطيط التى استقرت لدى المتخصصين فى هذا الفرع التربوى العصرى الهام وأهمها :

١ – الشمول :

إذا ما نظرنا إلى طبيعة التخطيط التربوى يمكن تبين ضرورة شموله لكافة مراحل التعليم وأنواعه من رياض الأطفال حتى الجامعة . كما يجب أن يشتمل على تربية الكبار ، وأن يستغرق الميادين المترابطة الأخرى كالإدارة وتمويل التعليم والمبانى والأدوات المدرسية . كما يشمل التخطيط للمناهج والوسائل والأساليب المختلفة .

٢ – الاندماج فى التخطيط العام :

لقد أصبح من المسلمات ضرورة اندماج التخطيط التربوى فى مجموع التخطيط الاجتماعى والاقتصادى ، وضرورة ارتباطه بالتصميمات المتعلقة بالقطاعات الأخرى . « فوضع خطة تربوية ليس معناه مجرد إضافة خطة التعليم المدرسى إلى جانب الخطط الأخرى (كما نفعل نحن) . كما لو كان الأمر ضم مقالات لمختلف الكتاب فى غلاف واحد ، وإنما ينبغى أن تنسق خطة التعليم فى أهدافها واتجاهاتها فى هذا الجانب من النشاط الاجتماعى مع الأهداف والاتجاهات ، ونمط المعالجة للجوانب الأخرى بحيث تمثل فصلا من كتاب محكم فى تنظيمه وترابطه وأسلوب معالجته » [١] .

٣ – التواصل على المدى القصير والطويل :

يجب أن يكون تخطيط التعليم المصرى نشاطا ذا أمد طويل ، وممارسا بطريقة متواصلة ، فيتناول المستقبل الذى تتراوح مدته بين عشرة وعشرين سنة ، وكذلك المستقبل القريب . وذلك لأن التربية تحتاج فى الواقع إلى وقت . ولذا فالحصول على نتائج منها

---

(١) حامد عمارة ، المخططات التربوية وعلاقتها بالاتجاهات الاجتماعية والثقافية . بحث مقدم للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية فى المؤتمر الثقافى العربى السابع المنعقد فى القاهرة ، مارس (آذار) ١٩٦٧ (على الآلة الكاتبة) .

خلال عدد من السنوات يتطلب الإعداد لهذه النتائج منذ اللحظة الحاضرة . إذ المعروف أن القوى العاملة عالية المستوى التى تحتاجها التنمية ويحتاجها التعصير تتطلب مجهودات خاصة تستمر فترات طويلة من الزمن . مما يعطى لعامل الزمن فى التخطيط التربوى وزناً خاصًا [١] .

٤ – العناية بالجوانب الكمية والكيفية والنوعية :

يجب أن يشمل تخطيط التعليم المصرى الجوانب الكمية والكيفية للتعليم فلا يقتصر على الجوانب الكمية فقط مثل تقدير عدد التلاميذ والمعلمين والأقسام وإنما لابد من الالتفات إلى الجوانب الكيفية والنوعية مثل أهداف ومحتوى التعليم . وإعداد المعلمين ووضع البرامج والمناهج وفاعلية الكتب . وهذه المسائل النوعية تتطلب وضع معايير تفترض تحقيق كفاية معينة فى التعليم .

٥ – فاعلية التنظيم الإدارى وأجهزة الإحصاء :

ولكى يعطى تخطيط التعليم نتائج مرضية . يجب أن يكون للتنظيم الإدارى ولأجهزة الإحصاء فاعلية [٢] . ومرونة معينة تيسر هذا العمل تصميما وتنفيذا ومتابعة . ومن هذا كله نرى ضرورة قيام التربية المصرية على تخطيط تربوى علمى . لأن ذلك ضرورى لبناء تربية مصرية عصرية لدولة عصرية . فالتعقد والسرعة الملازمان لتحقيق تطور متوازن وتعصير على أساس علمى يبرزان حتمية التخطيط وفائدته كوسيلة للتكهن بالحاجات المقبلة . يجدر الاستناد إليها عند القيام بأى عمل منهجى منظم . أو كقاعدة عقلية تساعد على التفكير فى الحاضر على ضوء المستقبل [٣] كما أن له أهميته حينما نريد أن نخطط للمهن وللأدوار التى تضاف إلى بنية المهن تحت تأثير التطور التكنولوجى السريع وتحت تأثير التعصير وما يأتى

---

(١) Henry David, "Manpower problems and Education" in Education and Manpower by Henry David. Columbia. University Press. New York 1969. p. 19.

(٢) اليونسكو وتخطيط التعليم . ترجمه ونشره مركز التنسيق بين اللجان الوطنية العربية لليونسكو ، رئاسة جامعة محمد الخامس . الرباط ص ٤ .

(٣) Unesco. chronicle. June. 1964 Vol. X No: 6 p. 193.

به من أدوار جديدة ، وحينما نخطط لتحسين كفاية العاملين دون إبطاء [١] ليواكبوا تلك التغيرات الجديدة . كما يؤكد مفهوم الاستثمار فى التربية وعائده الاقتصادى ضرورة التخطيط لهذا الاستثمار حتى يكون العائد مجزيا . كما أبرزت مشكلات التربية وتكامل حلولها ضرورة التخطيط لها خاصة بعد تزايد الإيمان بالتخطيط وبقيمته فى السيطرة على المستقبل [٢] .

كيف يمكن الإفادة من الإدارة العلمية كموجه تربوى ؟

لقد كانت سلبيات الإدارة فى المجتمع المصرى أسبابا قوية لفشل وتعويق تجارب التحديث فى تاريخنا المصرى الحديث وبخاصة تجارب التنمية الأخيرة. كما كانت هى بدورها ، وإلى حد كبير نتيجة لعدم نضج هذه التجارب فى كثير من جوانبها .

وهذه السلبيات الإدارية هى فى جوهرها انعكاس لسلبيات فى الشخصية المصرية كانت وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأنواع المؤسسات والنظم التى تكون كيان المجتمع على نحو ما أشرنا من قبل .

ولقد انعكس سلبيات الإدارة العامة على الإدارة التربوية لأنها جزء هام منها . كما أن العمل التربوى والتخطيط التربوى يتخبط نتيجة لعدم تأسيس الإدارة على العلم نظريا وتطبيقيا .

وإذا كان ثمة موجه تربوى يؤخذ من الإدارة العلمية العصرية فإن التربية المصرية عليها أن تستبطن هذه الخصائص وتفكر فى عدة مسائل وأن تأخذ منها موقفا علميا أهمها .

١ – المسألة الأولى :

كيف تستبطن التربية أمورا معينة من شأنها أن تقضى على سلبيات الشخصية الإدارية .

---

(١) فيليب كومبز : « التخطيط المتكامل للتربية فى البلاد الصناعية » فى وقائع اليونسكو العدد الخامس من المجلد الثانى عشر ، مايو ١٩٦٦ ، فى افتتاح مؤتمر طوكيو ص ١٥ ١٦ .

(٢) عبد الله عبد الدايم « مدخل عام إلى دراسة التخطيط التربوى » (١) المسألة ومبرراتها فى صحيفة التخطيط التربوى ، بيروت ، السنة ٣ ، العدد السابع ص ٥ ٢٠ .

٢ – المسألة الثانية :

كيف تستبطن الإدارة التربوية نفسها أنماطا إدارية عصرية وعلمية من شأنها أن تكون مجال ممارسة إدارية سليمة تشع على المجتمع كله بعد أن تنجح هى فى مجالها .

أى كيف تفيد من المناهج العلمية فى الإدارة فى دراسة عملياتها وأنظمتها وتحليلها إلى عناصر ومكونات وإحلال بديلات أفضل يكون من شأنها تحقيق فعاليتها وكفايتها فى مجال النظر والتطبيق . وتطبيق الأساليب والمناهج الإدارية العلمية العصرية فى الإدارة التربوية والمدرسية المصرية يمثل أحد التحديات الأساسية فى مجال تطويرها والقضاء على تخلفها وسلبياتها ونقائصها .

كيف نفيد من خصائص العصر كقوى تربوية ؟

أمام مجتمعنا إذن فى هذا الربع الأخير من القرن العشرين حضارة متقدمة ، عرضنا لخصائصها وملامحها ، وعرفنا كيف يمكن أن توجه تربيتنا .

على أن هذه الحضارة العصرية المعاصرة غنية ومليئة بالخبرات والتجارب التى تمثل قوى تربوية بالنسبة لمجتمعنا إذا أراد أن يعيشها . وبمعنى أكثر بساطة تمثل مجالات تربوية يمكن له أن يعيشها ، ويتمثلها ، ويتفاعل بها ومعها . وهذا التمثل والتفاعل يتطلبان عديدا من الضمانات والشروط . من أهم هذه الشروط والمتطلبات أن تستثيره هذه التجارب بمثيراتها وهى استثارة ينبغى لها إذا أرادت أن تحدث استجابات تلقائية فعالة تسير فى الخط الحضارى الصاعد المتسامق أن تكون عامة تقع على جميع من فى هذا المجتمع من مؤسسات ، ونظم ، وخلايا اجتماعية ، أى تعم المجتمع كلية .

وثانى هذه الشروط والمتطلبات الفهم الواعى لهذه الخبرات والتجارب بحيث يبدأ هذا الفهم من معرفة دوافع هذه الخبرات ، وأسبابها ، ومعالمها ، وشروط تفاعلها الاجتماعية ، وأهدافها التى تحققت فى حياة المجتمعات العصرية ، والتى لم تتحقق بعد خبرات الديمقراطية مثلا أو الإدارة فى حياة المجتمعات المعاصرة لابد لها من مثل هذا الفهم وهكذا .

وثالث هذه الشروط والمتطلبات التكيف الواعى لهذه الخبرات وفقا لظروف المجتمع

وتكييف المجتمع ليتقبل أسسها ومبادئها التى لا يمكن التخلى عنها وإلا افتقدت جوهرها . يقال إن محمد على قد تأثر باشتراكية « سان سيمون » ولكنه حينما أراد أن يستعيرها فإنه قد كيفها تكييفاً شخصياً أنانيا بحتاً . . فتحولت الاشتراكية على يديه خبرة وتجربة احتكارية استفاد منها هو لتحقيق مطامعه وطموحه ، ولم يستفد منها المجتمع بصورة مباشرة لأنه لم يعش تجربة اجتماعية اشتراكية تحدث فيه تحولات فى القيم ، والمفاهيم ، وتعود عليه بالفائدة المرجوة . وهذا مثل صاروخ للانحراف بتمثل واستيعاب التجارب المعاصرة .

وقيل إنه قد تأثر بفلسفة نابليون الحربية وبشجاعته فى خوض المعارك وبغزوه لأوروبا . . تأثر بهذه التجربة وعرف أن من أسباب قوة نابليون وعظمته تكوين جيش قوى ، وأسطول بحرى فعال فأسرع هو بتقليد نابليون فى بناء جيش وأسطول حديثين ، وأخذ يسير خطوة بخطوة فى مراحل هذه التجربة فشدته إلى نظام للتعليم مشابه لما هو موجود فى فرنسا (١)

وكانت فى فرنسا تجارب لمجالس استشارية للحكم فاستعارها ، ولكنه لم يحاول مثلا أن يجعل من المجالس الاستشارية التى أنشأها على غرار مجالس نابليون قوى تربوية فعالة (٢) فى تجربة التحديث المصرى ، وقوى فعالة فى تجربة التعليم المصرى الحديث .

ورابع هذه الشروط بل لعلها أهم هذه الشروط جميعا لأنها أساسها جميعاً أن تكون هذه الخبرات والتجارب قوى تربوية توجه الفلسفة التربوية كما ذكرنا وتشكل المناهج الدراسية لأنها خبرات . والمناهج حسب ما وصل إليه بحاث التربية وعلماؤها خبرات حياتية ماضية وحاضرة ومستقبلة ، وتجارب الحضارة العالمية المعاصرة وخصائصها ومقوماتها التى ناقشناها هى خبرات حاضرة تعايشها بالفعل دول عصرية ، وهى خبرات مستقبلة بالنسبة لنا . فتجارب الثورة العلمية ، والديمقراطية ، والحرية الاجتماعية ، والإدارة العلمية ، والتخطيط العلمى الشامل فى حضارة العصر المتقدمة ، كلها تجارب وخبرات ينبغى لها أن تحتل أغلب المساحات فى مناهجنا وأساليبنا الإدارية والتخطيطية التربوية بجميع مستوياتها .

إن أبناءنا إذا ما تفاعلوا فى المدارس والمؤسسات التربوية مع خصائص الحضارة العصرية معناه أن التربية تسهم فى بناء الدولة العصرية ، أما إن ظل أبناؤنا يتفاعلون مع

---

(١) المرجع الأسبق ، (أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على) .

(٢) مرجع أسبق .

خبرات وتجارب حضارة القرن التاسع عشر وما قبله فى تربيتنا التى تحوى من العناصر التقليدية الكثير فهذا معناه أننا لا نعيش العصر ولا نعايشه وإنما نعيش حياة متخلفة عن عصرها . وهذا التفاعل العصرى يتطلب ممارسة الأسلوب العلمى وتحقيق شروطه ومقتضياته ، والتى أهمها امتلاك العلم المصرى وأدواته الحديثة . وهذا فى حد ذاته عمل تربوى وهدف تربوى يتطلب قوى فعالة تتمثله وتهضمه وتنشئ أبناء المجتمع عليه .

وخامس هذه الشروط ضمان حوافز متجددة بتجديد مراحل الخبرة أو التجربة . والحوافز ليس من الضرورى أن تكون مادية دائما ، وإنما قد تكون أقوى من الحوافز المادية . وهى تلك الحوافز التى تمثل جزءا من مكونات شخصية الإنسان وشخصية المجتمع [١] . ولا يتأتى ذلك إلا بتنشئة اجتماعية وتربوية واعية بأصول غرس البذور فى الشخصية ورعايتها حتى تنضج فإذا ما احتلت هذه الشخصية مواقع العمل فى هذا المجتمع استطاعت أن تتفاعل مع خبراته وتجاربه الجديدة بوعى ، وعلى أسس ناضجة قوية نزيهة نزاهة العلم وموضوعيته .

ولو استطاعت تربيتنا أن تنمى حوافز قوية بناءة نحو اتجاهات العصر وخصائصه لقضت على كثير من مظاهر التخلف فى مجتمعنا مثل السلبية والخوف اللتين كانتا وراء إخفاق النظام الإدارى والانحراف بالبيرقراطية [٢] إلى أن أصبحت معوقا للتقدم ، ولتمثل بعض تجارب العصر .

غير أن استنباط التربية وتمثلها لخصائص العصر وأيديولوجيته والتزاماتها بتنشئة أبناء المجتمع عليها ، أمر ينبغى أن يحاط بكثير من الضمانات والشروط ، إذ أن لكل مجتمع تضمنه حضارة هذا العصر متطلبات خاصة به واقعا وأملا . كما أنه يواجه تحديات ومشكلات قد تشاركه فيها مجتمعات أخرى ، وقد ينفرد هو بمواجهتها .

ونحن فى مجتمعنا نعيش مرحلة تحول سياسى ، واجتماعى ، واقتصادى ، وثقافى عرضنا لكثير من جوانبها . كما نواجه فى نفس الوقت تحديات خارجية لم تتكرر فى التاريخ إلا قليلا . وأهمها الغزو الاستيطانى الصهيونى ، ومحاولة القوى الخارجية المعادية باستمرار تصفية أى انطلاقة عربية . وإحباط أى تقدم عربى منذ العصور الوسطى حتى وقتنا

---

(١) انظر فى هذا الصدد : حامد عمار : ص ٦٣ ٦٤

(٢) مرجع سبق ، حامد عمار ، فى بناء بشر ، ص ٢٤ .

الحاضر. ومن هنا فإن التربية فى بلادنا ينبغى أن تضطلع بمسئوليات جسيمة نحو التغيرات الحادثة والمنشودة فى الداخل ونحو هذه التحديات الخطيرة من حولها فى الخارج . . الأمر الذى يتطلب مراجعة المناهج ، والمبادئ ، والفلسفة التى تقوم عليها هذه التربية ، حتى تحقق القوة الذاتية القادرة على مواصلة مسيرة التقدم [١] . ومواجهة هذه التحديات واجتيازها بنجاح .

التحولات المعاصرة فى مجتمع ما بعد الثورة كقوة معلمة فى بناء الوطن العصرى المصرى :

إن مفتاح بناء الدولة العصرية هو بناء إنسان عصرى يستبطن خصائص العصر ومقوماته بحيث تترجم إلى أنماط شخصية وسلوكية فردية وجماعية.والمدرسة منطلق أساسى فى هذه العملية .

ولكن لا ينبغى أن نبالغ فى إدراك مسئولية التعليم المدرسى فى تكوين المواطن الجديد وأن ندرك أن قوى المجتمع الأخرى هى قوى معلمة . قد تدعم ما نبنيه فى المدرسة ، وقد تخلخل بعضه أو تلغى أثره [٢] .

ومعنى هذا أن التربية بجميع أشكالها والمسئولين عنها بجميع أدوارهم مسئولون عن دور معين فى بناء الإنسان الجديد . وتكوين الشخصية العصرية . ومعنى هذا أيضا أن كل ما حدث فى المجتمع من تغيرات وتطورات إن هى إلا قوى معلمة يمكن الانطلاق منها إلى تحقيق الخصائص العصرية فى بنية وتكوين الإنسان المصرى العصرى .

على أنه يجب الإشارة هنا إلى أن مجرد إلغاء الظروف الموضوعية التى كانت سببا فى خلق أنماط سلبية فى الشخصية المصرية ليس كفيلا من تلقاء نفسه وبطريقة أوتوماتيكية أن يخلق أنماط السلوك المرتبطة بالشخصية المنتجة [٣] العصرية . صحيح أن التطورات الجديدة والتغيرات الحادثة فى هذا المجتمع تدفع به إلى نوع جديد من الحياة تظهر فيها التطلعات الجديدة إلى حياة أكثر تطورا وتقدما . ولكن تحقيق ذلك يحتاج فى نفس الوقت إلى جهد يبذل ، وإلى معاناة فكرية وإلى عملية تنظيمية واجتماعية . وفى وسط هذا الجهد وتلك المعاناة لابد من تبين العناصر الصاعدة والعناصر الهابطة الهدامة . وتحليل صور كل منها

(١) محمد هادى عفيفى . المرجع السابق ٣٧ .

(٢) مرجع سابق . حامد عمار . فى بناء البشر - ص ٤٢ .

(٣) مرجع سابق ، ص ٤٢ ٤٣ .

والتعرف على مكوناتها . ومن هنا كان لابد للتعليم من أن يكون على وعى تام بالمتناقضات التى ينبغى حلها فى مجتمعنا ، وأن يتخذ من صور المقارنة بين الاتجاهات الصاعدة والهابطة قاعدة لنظمه ومحتوياته ومناهجه وطرقه .

لقد حدثت بالفعل انطلاقة تعصيرية لمجتمعنا فيما بعد ثورة ١٩٥٢ ، وهى تقتضى منا مزيدا من الجهد المنظم لمواصلة التقدم بمعدلات أسرع لكى نبنى الدولة العصرية . وهذا يتطلب أن نبنى محركات التقدم داخل كافة الأجهزة العادية والعناصر البشرية . والأنظمة الاجتماعية ، مما يتطلب بدوره إعداد قوة بشرية بكيف وبكم معينين ، يخطط لها تخطيطا يتبع أسلوب ومنهج التخطيط العلمى حسب آخر ما وصلت إليه مناهج التخطيط لإعداد القوى البشرية وفقا لحاجات المجتمع الثقافية ولحاجات اقتصادياته من القوى العاملة .

وهذا يلقى بثقل المسئولية على التربية أهدافا ومناهج ومدرسين ومتعلمين . والتربية هنا تأخذ معنى جديدا . أو ينبغى لها أن تأخذ هذا المعنى الجديد بحيث تشمل تربية الجميع أو تعلم الجميع بحيث تكون فيها تربية تختص بتربية القادة بحيث يعدون إعداداً تربويا بجانب إعدادهم التخصصى حتى يدركوا بصورة واقعية أبعاد المسئولية التربوية فى حياة المجتمع . وهذه المسألة على جانب كبير من الأهمية والخطورة فى حياة الأمم والشعوب وخاصة فى مرحلة بنائها . فقد يدرك القائد والمسئولون أهمية للتربية لا تتكافأ وزنا وحقيقة مع وزنها الحقيقى وحقيقة أمرها فى حياة الأمم .

وهذا المطلب يبنى على أساس معين هو أن التربية هى بوتقة الانصهار للفكر الفلسفى الاجتماعى للدولة العصرية . أو بمعنى أكثر بساطة هى ميدان التجريب والاختبار والتطبيق لفكر الدولة وأيديولوجيتها وأهدافها . وما لم يكن القادة فلاسفة أو على الأقل مستوعبين لفلسفتها ولدور التربية فى تطبيق هذه الفلسفة ظلت الفلسفة الاجتماعية ضربا من الغموض ، وظلت وسائل البناء الاجتماعى تتخبط تخبطا عشوائيا ، فلا تتقدم الدولة ، ولا تبنى بناء عصريا .

لقد كان لينين بانى الاتحاد السوفيتى فيلسوفا ، وتربويا ، وامتداداً لماركس وفلسفته وفكره . . كما كان ماوتسى تونج وشواين لاى فيلسوفى الصين وبانييها ، وغيرهما كثير . . وكل منهما كان فيلسوفا سياسيا وفيلسوف تربية من الطراز الأول . حتى هتلر وموسلينى كانا يؤمنان بدور التربية إيماناً حقيقيا واقعيا فى البناء الاجتماعى والاقتصادى . ولم تقف المسألة

عند حد الإيمان ولكن تعدتها إلى التطبيق الواقعى فى حياة الأمة . ولا تقتصر المسألة على مجرد الإشارة فى بعض الحالات إلى أهمية التربية وإلى دورها التربوى ولكن المسألة هى أن التربية موضوع السياسة ، والتطبيق المباشر لها والمحرك لاتجاهاتها .

وقد يستعاض عن هذا بجهد مضاعف من التربويين أنفسهم لحمل لواء الدعوة والتبصير باتجاهات معينة تكون فعالة فى مواكبة الأمة لعصرها .

وإذا كان بناؤنا العصرى يستلزم إعادة صياغة حياتنا فى مختلف جوانبها شكلا ومضمونا ، فإن هذه الصياغة الجديدة تستلزم الانطلاق من واقعنا الحى لتنمى إيجابياته وتقضى على سلبياته ، وإذا كان واقعنا التعليمى قد قصر عن تأدية المهمة التى يقتضيها تعصير المجتمع ، فإن ذلك يفرض على فلسفة التربية أن تستكشف له جوانبه الإيجابية لتنميتها وجوانبه السلبية لتحرره منها وجوانب القصور فيه لتستكملها .

ولابد أن تنظر إليه فى ضوء مطالب التعصير نظرة دارسة ناقدة لترى ماذا تريد منه أن يتحقق ، وكيف يمكن أن يحققه مصطنعاً أساليب عصرية لتحقيق أهداف العصرية . ثم ترجمة كل هذا فى واقعه وجزئياته وأبعاده وأنظمته المختلفة .

ومرحلة التحول الاجتماعى التى ناقشناها توجب على التعليم أن يتخذ من المقارنة المستمدة من هذا الواقع الاجتماعى ، ومن تاريخ نظمنا ومن مناهج حياتنا ركيزة أساسية فى نشاطه فى مختلف المستويات والأنواع التعليمية .

ويكون من منطلقاتنا الأساسية فى التعليم إذن تلك القوى المعلمة فى هذا الواقع الاجتماعى ، مع وجوب إدراك أن هذا الواقع الحضارى والثقافى يحتدم فيه الصراع الثقافى بين الاتجاهات اللفظية الشكلية ، وما يرتبط بها من مجردات فكرية وتنظيمات صورية ، ومظاهر سطحية جاءت كميراث لجزء من تاريخنا [١] خاصة من ثقافة القرن الثامن عشر وما تأكد منها بفعل الاستعمار وقواه العميلة ، وبين الاتجاهات اللازمة لاجتياز مرحلة البناء العصرى من فكر موضوعى تحليلى لا يعنى باللفظ قدر عنايته بالواقع بتضاريسه وتجسمه وحركته ، لا كما تمليه أحلام اليقظة وخيالات اليوتوبيا .

إن أى وعى حقيقى بأهداف التعليم العصرى ، لابد أن يأخذ هذا الصراع مأخذا جديا

---

(١) مرجع سابق ، ص ٤٣ .

فى محتوى التعليم ومضمونه ونظمه وطرقه وإدارته ، وأن يدفع بالقيم الصاعدة ويبنيها ويدعمها . وأن يزلزل القيم الهابطة ويزيل أنقاضها[١] .

ولكن انطلاقنا من هذه الصورة الواقعية فقط قد تقوقع تجربة التعصير الاجتماعى والتربوى . ومن ثم وجب أن ننطلق من أساس آخر سبق أن أوضحنا معالمه هو دراسة خصائص العصر ومقوماته واتجاهاتها قوى مربية .

إلا أن خصائص العصر كموجهات للتربية وكقوى معلمة ، وانطلاقنا من واقع تغيراتنا الاجتماعية – على نحو ما ناقشنا – تثير عددا من القضايا التربوية الهامة فى مجال التعصير التربوى سنتناول منها : (أ) قضايا تحقيق المجتمع المتعلم التربوى . (ب) قضايا علمية التربية .

(أ) قضايا تحقيق المجتمع المتعلم التربوى :

مسمة هامة فى حضارة هذا العصر المتقدمة أن يكون مجتمع الدولة العصرية متعلما . فبدون المجتمع المتعلم لا يمكن أن يكون هناك دولة عصرية إطلاقاً .

ومن هذه المسلمة التى أدركتها كثير من الدول المعاصرة انطلقت ثورة فى جميع جوانب البناء التربوى ، فاتسقت أهدافه كما اتسعت جوانبه الأخرى . بعد أن أصبح ينظر إلى المعرفة على أنها مفتاح لمجموعة كاملة من القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية . كما نظر إلى أن احتكار المعرفة فى عدد قليل من البشر معناه تحكم الأقلية فى مصائر الأغلبية وأن أى تطور بشرى اجتماعى لا يتم إلا بتحطيم احتكار المعرفة وأن يصبح حق التعليم ملكية عامة لكل فرد[٢] .

---

(١) نظر المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٢) وهذه الفكرة ليست جديدة . فقد شاعت فى المجتمع الأمريكى مثلا خلال الثورة الأمريكية . . وظهرت بعد ذلك بفترة فى المجتمع الروسى ثم فى مجتمع الهند ، حيث شارك طاغور وغاندى على التوتيب جيفرسون فى فكرته . ولو أنهما اختلفا عنه فى مثلهم العليا وفى كيفية تحقيقها . وتتلخص هذه الفكرة فى أن نشر المعرفة على نطاق واسع جزء أساسى من أى خطة لتحريك أى مجتمع إلى مستويات عليا جديدة . ويتسق مع هذا المعنى ما يقوله مؤخر جدا (فى الستينات) كل من هربسون وميرز من أن التربية هى مفتاح التعصير .

ولقد كان هذا الفكر وراء تحقيق المجتمع المتعلم بالفعل فى الدول العصرية » .

مرجع سابق (كومبز) ص ١٦٢ – ١٦٤ .

F. Harbison & Charles. Myers. Manpower, Education and Economic Growth.

ولهذا رأينا أن « المجتمع المتعلم » يعتبر من أبرز المعايير التى تشير إلى عصرية الدولة . وإذا كنا ننشد بناء دولة عصرية فلابد إذن من بناء مجتمع متعلم لهذه الدولة . وهذا يحتم علينا أن نراجع فكرنا التربوى ، ونظامنا التعليمى على ضوء ما ناقشناه من تجارب التعصير والتحديث ومفاهيمها ، بحيث تتضمن هذه المراجعة مستويات ثلاثة : مستوى التعليم الشعبى ، ومستوى التعليم الثانوى العام ، ومستوى التعليم العالى[١] .

فبالنسبة للتعليم الشعبى : لقد مر بنا كيف تعوقت تجربة التحديث فى عصر محمد على لأنها لم تمتد بجذورها فى أعماق المجتمع . وذلك لأن أهم مقومات الدولة الحديثة والعصرية أن تسرى خصائصها فى شرايين الشعب كله . لأن الدولة العصرية ذات المجتمع المتعلم Educated Seciety يشارك شعب هذا المجتمع كله فى بنائها . ويفهم أهدافها ، ويتعاون من أجل تحقيقها . فمن هنا تفشل كل تجربة فى التحديث أو التعصير إذا ما اقتصر التعليم فيها على فئة أو فئات من الشعب دون الفئات الأخرى أو على عدد قليل من مدنه دون بقية مدنه وقراه . وإن كان ما يطلب تحقيقه فى هذا الصدد ألا يكون شعب الدولة كله على مستوى واحد فى الفهم والمشاركة والتعاون والتعليم . ولكن يجب أن يتوافر للفئات الأقل مستوى حد أدنى من الوعى والتعليم يستطيع به أن يتعايش ويتفاعل مع الدولة العصرية . ويتمكن به من القيام بالدور الذى يلعبه فى تحقيقها وبنائها[٢] .

وتعليم المجتمع أو بعثه وإنهاضه يتطلب نظرة عميقة للأسلوب الذى يحققه ، ودوافع هذا البعث . والخطأ الذى يقع فيه المصلحون الاجتماعيون دائما فى هذا المجتمع هو أن يبدءوا دعوة التغيير من خارج هذه الفئة الكبرى من أبناء شعبنا كما كانت هذه الدعوة تأخذ شكل أساليب للوعظ أو التوجيه أو التوعية . وليس هناك من أمل فى تحقيق التغيير فى الفلاح المصرى إلا بانبثاقه ذاتياً بواسطة التعليم .

وهذا التعليم الذى يمثل الأمل الوحيد ، والمحرك الأساسى لتعليم الشعب ليس مجرد تعليم ، أو تثقيف بالمعنى العام ، وإنما هو تغيير اجتماعى جذرى يحقق تغييرات يواجه بها قضايا الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية على أساس من عقلانية العصر . بحيث

---

(١) فؤاد زكريا ، مرجع أسبق (مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٤١ يوليو ١٩٦٨) ص ٧٠ .

(٢) مرجع سابق ص ٧٠ .

تحدث تغييرات هائلة فى حياة الفرد وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه [١] . ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا تمكن المنهج العلمى من حياتنا الاجتماعية ، ففكرنا وفقا له ، وسلكنا وحللنا مشاكلنا ، وواجهنا مواقف الحياة بأدواته وأساليبه .

وتعليم المجتمع يقتضى ألا تكون هناك أمية على الإطلاق .فالقضاء على تلك النسبة العالية من الأمية أمر ضرورى . كما يقتضى أن يمتد تعليم صغاره تعليما إلزاميا عاما إلى سن المرحلة الإعدادية على الأقل ، فضلا عن المرحلة الثانوية ، لكى يتاح لهم إتقان أسس الثقافة وأصولها . ولكى يتحقق حد أدنى من التماثل الاجتماعى العام بين أبناء هذه الأمة [٢] . مع تحفظ معين هو ألا يكون هذا التعليم نظريا بحتا كما هو موجود بشكله الحالى . لأن حضارة اليوم ليست حضارة النظر بقدر ما هى حضارة العمل والتطبيق ، ولأننا فى مجتمع ترتفع نسب الإعالة فيه . وعلى ذلك إذا ما تخرج فريق من المرحلة الإعدادية الإلزامية ولا يستطيع مواصلة تعليمه يكون قد تمكن من إتقان بعض أسس لمهارات معينة تمكنه من أن يسير فى مزاولة مهنة من مهن المجتمع المختلفة . ولن نكرر ثانية

---

(١) مرجع سابق ، ص ٧١ .

ومن أمثلة هذه التغيرات تغيير النظرة التقليدية إلى الأمور واستبدالها بنظرة تقدمية للمستقبل . وتغير الاتجاهات الخاطئة التى لاتناسب العصر إلى اتجاهات عصرية قائمة على العلم والمنطق والعقلانية ، ومن قبيل هذه الاتجاهات الخاطئة اللامبالاة والسلبية والتواكل والتفكير الخرافى فى مجالات عديدة .

(٢) ونظرة إلى إحصائيات التعليم نجد أن نسبة عدد التلاميذ الذين هم فى سن المدرسة الابتدائية (٧ - ١١ سنة) ولايلتحقون بها (وفقاً لتقديرات ١٩٦٧) فى كل من العراق وسوريا ومصر تتنوع من ١٩ إلى ٣٢ ٪ .

وعلى الرغم من الزيادة الكبيرة فى أعداد الملتحقين بالمرحلة الثانية فى مصر إلا أن نسبة التلاميذ الذين هم فى سن هذا التعليم ولايلتحقون به تتراوح بين ٤٠ ٪ ، و ٧٠٪ فى كل من الكويت والبحرين والأردن وسوريا ومصر .

وتقع مصر ضمن مجموع البلاد العربية وهى قطر ، تونس . ليبيا . سوريا التى تتراوح نسبة القيد الكلى فيها فى التعليم الابتدائى والثانوى بين ٥٢٪ و ٦٣٪ تاركة من ٣٧ إلى ٤٨ فى المائة بدون التحاق بالتعليم .

وتشكل الأنماط والأهداف القديمة للتعليم الثانوى فى البلاد العربية ومعها مصر أكثر المشكلات خطورة فى التعليم الثانوى فى البلاد العربية بالرغم من التوسع النسبى المعقول فيه . فهذا التعليم لايزال مقسم إلى أنماط وأنواع منفصلة تماماً والتى تعد غالبيتها للتعليم العالى . والمدرسة الثانوية العامة مازالت منقسمة بحدة إلى فرعى الآداب والعلوم .

وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم التوسع فى التعليم الثانوى قد أخذ مكانه فى التعليم الثانوى الأكاديمى باستثناء تونس والجزائر وإلى حد ما مصر حيث إن نسبة الزيادة فى التعليم الفنى فى المرحلة الثانوية واضحة :

M. A. El- Ghannam, Education in the Arab region viewed from the 1970. Marrakesh conference. Unesco Printed in 1970 in the workshops of the Unesco place de Fontenoy Paris 70) France 1971. pp. 17 –18.

ما قلناه بالنسبة لمراحل التعليم الأخرى من ثانوية وعالية . ولكن ما ينبغى تأكيده هنا هو أن المجتمع المتعلم متعلم بمستويات ، ومعايير معينة وفقاً لمرحلة النمو التى يسير فيها ومتطلباتها ، على أن يضمن تعليما شعبيا وإلزاميا لأطفاله لمن يقل عمرهم عن خمسة عشر أو ستة عشر عاما ، فهذه هى القاعدة الأساسية فى المجتمع المتعلم بجانب عدم وجود أمية على الإطلاق ، ولذلك فإن التحدى الأول الذى يواجه التعليم فى هذا المجتمع هو : كيف يتسق التغير والتعصير بفعل التعليم من داخل هذا المجتمع نفسه ؟ وكيف يكون هذا التغيير هادفا وواعياً وعقلانياً وجذريا بحيث ينطلق بالمجتمع إلى عالم عصرى فى آفاقه وأبعاده وأعماقه وسلوكه وأهدافه .

كما أن التحدى الثانى الذى يواجه التعليم فى هذا المجتمع : هو كيف يصبح التعليم قضية سياسية تشغل بال الساسة والهيئات والتنظيمات السياسية المختلفة عن إيمان واقتناع وفهم لأبعاد هذه القضية ؟ كيف تنطلق الجهود السياسية كلها لتدعيمه ، والمحافظة عليه ، وحل مشاكله ، والاستجابة لمتطلباته ؟ كيف لا يكون هذا الإصلاح التعليمى مجرد ومضات بارقة فى خطب الساسة ، وأولياء الأمور فحسب.وإنما تكون النداءات والشعارات دعوة للإصلاح الفعلى والتبنى الحقيقى المتواصل ؟

كيف نفهم أن تغيير التعليم أصعب وأعقد من إرسال إنسان إلى الفضاء [١] بما يتطلبه هذا الإسراء إلى الفضاء من أبحاث علمية ، ومن جهود سياسية ، ومن تخطيط علمى وتحليل علمى للأنظمة ، ومن إمكانيات مادية ، ومن تدريبات بدنية ومن تجهيزات فنية وعلمية ؟ وكيف يفهم الساسة الأمر على هذا النحو ؟

وكيف يفهمون أن التعليم بكل صعوباته وتحدياته واستمرارها لا يحلها مؤتمر يعقد لمدة شهر أو شهرين أو سنة أو سنتين ويجهز له فى أيام معدودات أو حتى سنوات معدودات ؟ كيف يفهمون أن التعليم يحتاج إلى جهد متواصل من أجل ملاقاة تحدياته المستمرة المتوالدة تبعا للمراحل الاجتماعية وتجددها وتغيرها . بل تبعا لمستويات النمو الاقتصادى وتحولها [٢] .

كيف تتحول القضايا التربوية من تمويل ، ومحو أمية ، وتعليم الكبار ، والتعليم المستمر ، وقضايا المناهج إلى قضايا سياسية ؟

---

(١) ف . كومبز ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

(٢) فريدريك هاربسون ، تشارلز مايرز ، مرجع أسبق .

والتحدى الثالث الذى يواجه التعليم ، وبناء مجتمع متعلم هو النظرة إلى التعليم على أنه قضية اقتصادية تقاس من عائداتها قياسا كميا ونوعيا الآن فى الدول العصرية ، مما دفعهم إلى أن يمدوا سن التعليم الإلزامى إلى سن ١٦ ، ١٧ سنة – صحيح أن وراء الإلزام والعمومية كان يقف المبدأ الديمقراطى لحصول أبناء المجتمع على حد أدنى من الثقافة المشتركة تحقق لهم تماثلا فكريا ، وتماسكاً ثقافيا واجتماعيا وقوميا ، ولكن ظل المبدأ نظريا إلى ما يزيد على ثلاثمائة سنة فى عمر الحضارة الغربية المعاصرة ، إلى أن نظر إلى التعليم على أنه استثمار بشرى ذو عائد اقتصادى كبير فتحقق المبدأ . وأصبح الإلزام والعمومية حقيقة لا تمتد فقط إلى سن ١٢ ، ١٣ سنة ولكن إلى سبعة عشر عاماً .

بل حدث تطلع هائل إلى التوسع فى التعليم العالى ، وإتاحة الفرصة لمن يقدر عليه عقليا .

والقضية الرابعة ولعلها ذات أهمية خاصة فى عالمنا المعاصر ، هى التحدى الكبير الذى يواجه تعليمنا نحن بالذات من الزاوية الحربية العسكرية .

إن دول العالم العصرية لا تربى أولادها للحياة المدنية فقط . إن من زار هذه البلاد يلاحظ أنه على الأقل يمكن أن تتحول هذه المهارات التى يتعلمها الأطفال فى المدارس إلى مهارات حربية فى لحظات معدودات . ليس هناك طفل فى سن السابعة أو الثامنة من العمر لا يجيد السباحة . وليس هناك طفل فى سن التعليم الإعدادى لا يجيد قيادة السيارات والدراجات . ولا يعرف محتويات عديد من العناصر الحضارية المعاصرة من طيارة وسيارة ودبابة وخلافه .

ولنتذكر أن التحدى الذى واجهته أثينا حين هزمت من إسبرطة قد انعكس على نظامها التعليمى ومناهجها وأهدافها . فربت أطفالها تربية عسكرية على الأقل للدفاع عن الوطن . كما ربطت الواجبات الوطنية بواجب الدفاع عن الوطن وحبه والذود عنه ضد المعتدين . نحن مهددون بحرب ويحتل جزء على الأقل من وطننا حتى الآن بما يجعلنا ويحتم علينا أن نواجه هذا التحدى المصيرى ، وهذا القدر المحتوم . ولم ولن نستطيع مواجهته دون أن يواجه التعليم عندنا مثل هذه القضية وتتحول مدارسنا إن لم يكن مجتمعنا كله إلى ثكنة حربية ، وتستجيب المناهج ويستجيب الجهاز التربوى كله لمتطلبات هذه الاستجابة .

لقد دفع الغزو الإسبرطى لأثينا أفلاطون ، ذلك الفيلسوف المسالم وذلك الفيلسوف

الهادئ ذو الخلق الدمث الذى يدعو إلى الفضيلة والسلام والحب والتعاطف ، والذى ينشد الحقيقة أن يفكر فى المجتمع ، وأن يفكر فى الطبيعة البشرية ، وأن يفكر فى تربية تحقق بناء النفس البشرية ، وبناء المجتمع بحيث يحقق تربية مواطن شجاع قوى محارب يدافع عن وطنه أثينا . ولقد رسم لذلك نظاما تربويا يستخلص منه القوى المنتجة ، والقوى المحاربة ، والقوى الحاكمة الفيلسوفة الذكية الحكيمة فى المجتمع .

إن التحدى الذى يواجه مجتمعنا ، بل يواجه المنطقة العربية كلها الآن وعلى مر التاريخ ، هو تحدى الحرب . إذ لا يستطيع أحد من الباحثين أن يذكر فترة تاريخية تمتد إلى أكثر من أربعين عاما هى متوسط عمر الرجل عندنا تقريبا قد مرت بلا حرب أو غزو أو استعمار أو تدخل أجنبى فى تاريخ هذا البلد وتلك المنطقة . المهم أن فى حياة كل واحد منا يعيش فى هذا البلد حربا على الأقل . حكى لنا الآباء والأجداد ، وحكى لها آباؤهما وأجدادهما ، ونحكى لأطفالنا عن حروبنا ولا نتعظ أبدا ، لأنها لم تؤخذ مأخذا تربويا .

ولنتذكر أنه حينما عاش الأتراك والمماليك فى حروبهم الكثيرة الطويلة فإن تعليمهم كان حربيا فروسيا .

والتحدى الخامس هو كيف يتخذ التعليم منطلقا للتغيير وللتعصير فى المجتمع حتى يكون لدينا مجتمعا متعلما وهو من ألزم لوازم الدولة العصرية ؟

ولقد ناقشنا هذه القضية من قبل .

والتحدى السادس هو كيف يعاد التعليم على أساس علمى ؟

ولقد ناقشنا هذه القضية من قبل أيضا .

(ب) قضايا عملية التربية :

١ – التعليم بين الإصلاح والتثوير :

لما كانت التربية العصرية علمية وقائمة على نظريات علمية فى مجال تكنولوجيتها وفى مجال إدارتها ، وقائمة على أسس ديمقراطية ، فإن هذه الأسس فى حد ذاتها جاءت إلى حضارة العالم المعاصر بثورة فى كل أبعادها . ومن هنا فهى تفرض منطق الثورة لأن أى منطق آخر سوف لا يحققها وسوف لا يجاريها ولا يساير سرعتها المتدفقة الوثابة .

وإن لم يتكاتف قادة التربية ، وأخصائيوها ، وعلماؤها لتحقيق تلك الثورة التربوية فلن

يتحقق للتربية تعصيرها . وبالتالى سوف تعجز عن تأدية دورها بفعالية فى تعصير هذا المجتمع .

إن هذه الثورة . وتلك الروح لن تحقق بقرار إدارى مهما كان شأن المصدر الذى صنع هذا القرار . وإنما تتطلب إيماناً ، واقتناعاً ، وحبا ، وتضحية من قادة الجهاز التربوى فى مصر .

لقد نادى الرواد التربويون الأول [١] فى مصر ، وتابعهم الرعيل الثانى بمثل تلك الثورة . ولكن الأمر اقتصر على مجرد الشعارات . وإذا كان هناك ثمة نداء آخر فليستهدف ثورة علمية فى مجال التربية والتعليم . فلا يجب أن يقتصر العمل الثورى على مجرد إلقاء المحاضرات فى معاهد وكليات إعداد المعلمين . ولكن العمل الثورى التربوى يجب أن ينطلق من الدراسة العلمية العملية لقوى المجتمع ومؤسساته ، يجرى عليها الأبحاث ، ويتخذ منها قوى تربوية تدفع بالمجتمع إلى الأمام وتحرره من سلبياته ونقائصه . والسبيل الوحيد لأى تثوير وتعصير اجتماعى هو خلق حركة جديدة فى التربية يكون من شأنها الإحياء والتنوير والتثوير وإعادة بناء البشر بناءً عصريا متميزاً . وبهذا يكون تفكيرنا قد انصب على التربية لا حول التربية .

ولقد كتب « جون ديوى » فى هذا المعنى عام ١٩٣٨ يقول : « إن الذين يتطلعون إلى حركة جديدة فى التربية . . . عليهم أن يفكروا فى التربية ذاتها . لا فى شعارات عن التربية وتعصب لهذه الشعارات ، مما يدفعهم إلى بذل جهد لمحاربة من يحارب هذه الشعارات . . بدلا من التفكير فى دراسات واعية لاحتياجات التلاميذ ومشاكلهم وإمكانياتهم » [٢] .

ولقد سقطت النظرة إلى التعليم أو ينبغى لها أن تسقط - باعتباره سلسلة من المشروعات والأعمال المتصلة يتم تنفيذها فى مستويات مختلفة وأهداف مستقلة كل منها عن الآخر - وأصبح ينظر إلى التعليم داخل كل مجتمع باعتباره كلا موحدا ، أجزاؤه متوازنة . وهذا التوازن بدوره يعكس متطلبات المجتمع والموارد المتوافرة لمواجهتها [٣] .

إن البرامج التعليمية ، والأجهزة ، والإدارة ، وعملية التعليم ذاتها تحتاج إلى اهتمام

---

(١) Abo El Eouteuh Radwan, Old and New Forces in Egyptian Education.

(٢) مرجع أسبق (بول وودرنج ، نحو فلسفة جديدة . .) مترجم ص ٢٧ .

(٣) ف « كومبز » المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

أكبر ينصب مباشرة على وسائل إحلال التجديد محل الجمود ، والطرق الجديدة والجريئة محل الأفكار والطرق التقليدية التى عفى عليها الزمان[١] . وإذا كان هذا الإحلال محتاجا إلى تمثل الحركات العلمية فى مجال التربية المصرية والتى أصبحت أساس التربية العصرية الأول والأخير ، فإن هذا التمثل يمثل أمام التربية المصرية تحديا كبيرا لابد من مواجهته إذا أرادت أن تكون عصرية ، وإذا أرادت أن تقود التعصير الاجتماعى أو حتى على الأقل إذا أرادت أن تسهم بنصيبها فى عمليات التعصير .

ويقول ف . كومبز فى كتابه « أزمة التعليم فى عالمنا المعاصر » .

إن البناء التربوى ليس شيئا جامدا . فهو يتأثر بقوى داخلية وخارجية ، فمن ناحية القوى الداخلية ، فإن لديه إمكانية قوامها المرونة ، ولديه قوة داخلية تمكنه من اختيار استجابة من عدة استجابات يواجه بها الضغوط الخارجية أو القوى الداخلية الخلاقة . . وعندما يحدث سوء توازن بين القوى الداخلية فى أى نظام والقوى الخارجية التى يتعرض لها وتؤثر فيه ، تظهر عليه علامات المرض ، وحينما تبدو القوى الداخلية ضعيفة جدًّا بحيث تعجز عن إحداث تغيرات بذاتها متخذة موقف المبادرة ، تدفع القوى الخارجية النظام التعليمى بعنف على غير إرادته وتتعالى صرخاته ، وتعنف حركاته[٢] .

وعندما ناقشنا واقعنا التعليمى واتضح لنا مدى قصوره الداخلى ومدى عجزه الخارجى ، حتى ظهرت عليه علامات المرض ، ولقد حاولنا علاجه بأسلوب الرتق والرقع فظهر الثوب التعليمى مرقعاً . وظهر التعليم مزيجا من تعليم القرن الثامن عشر ، تعليم القرن التاسع عشر .

وأمامنا إذا أردنا علاجاً لهذا التعليم أمران :

١ - إما أن نخلع الثوب البالى ، ونلبس ثوبا جديدا . فنتخلص كلية من نظام التعليم التقليدى - فى امتحاناته ومناهجه وطرق تدريسه وإعداد مدرسيه ومبانيه المدرسية وأهدافه فى الحياة - ونبنى ، كما فعلت الصين الشعبية ، تعليما وجهازاً تربويا لدولة عصرية تماما بحيث تختفى فيه المتناقضات والصراعات .

٢ - وإما أن نسير فى خط تطوير انتقائى يبقى على العناصر الصالحة ويحل العناصر غير

---

(١) كومبز : المرجع السابق ، ٢٨٨ .

(٢) مرجع نفسه - ف . كومبز ، ص ١٦٤ .

الصالحة عناصر أخرى جديدة تحقق الرؤى الجديدة التى تخلقها رؤانا لمكونات الدولة العصرية بفكر مفتوح .

وللرأى الأول مبرراته والدافع له ، وللرأى الثانى حيثياته والحافز عليه ، وتصبح أمامنا قضية تحتاج إلى حل : طرفاها ثورة أو تطوير ؟ .

طرف القضية الأول . وهو الثورة تحثنا عليها تجربة محمد على التعليمية فهى تذكرنا بأن محمد على لو أراد أن يتخذ من التعليم القائم منطلقا لبناء تعليم حديث فى عهده يخدم الجيش والأسطول بحيث تتحقق فيه المناهج الحديثة فى عهده من طبيعية وكيمائية وتشريحية لوجد من الصعاب ، ولصادف من الصراع ربما ما أثناه من عزمه أو ربما لجأ إلى مذابح أكثر لتحقيق أغراضه ! !

وطرف القضية الثانى : وهو التطوير تحثنا عليه تلك التحديات التى تحذرنا من الاقتداء بمحمد على وبتجربة الصين . فلقد وجد محمد على عددا بسيطا من الكتاتيب والمساجد ، فلو تركها وشأنها وبنى تعليما جديدا مجاورا لها كلية فإن الأمر كان سهلا ميسراً ، أما نحن الآن فأمام هذا المحيط الضخم من التعليم . من إعداد المدرسين ، ومن إعداد المدارس ، ومن إعداد المشتغلين بالإدارة التعليمية ، ومن إعداد الكتب والمناهج والأدوات والوسائل مما يصعب معه أن نلقى بهذه الكتل الضخمة فى البحر . ونبنى كتلا جديدة مناسبة لدولة عصرية .

ليس أمامنا إذن إلا أن نطور ماعندنا وننميه ونزوده بقوى بشرية تربوية جديدة ونحافظ عليها من الانزلاق . ولكن هل هذا هو الطريق ؟ والحق أن طرف القضية الأول وهو الثورة صعبة للغاية ، وأن طرفها الثانى وهو التطوير قد لجأنا إليه مراراً فلم يسلمنا إلا إلى الرفو والترقيع . ونحن بهذا فى موقف صعب للغاية . وهذه طبيعة التغيير فى المجال التربوى والتعليمى . فكيف نواجه هذا التحدى ؟ !

الواقع أن أى محاولة فى هذا المجال هى من قبيل الاجتهاد ، وما ينبغى عمله هو أن الجهات المعنية بخلق تعليم عصرى عليها أن تواجه هذه القضية بحل حاسم . وهى فى هذا تتطلب جهد جهات عديدة ، جهد الجهاز السياسى كله والتنظيم الشعبى والجماهيرى بكافة مستوياته ، وجهد رجال التربية والتعليم المهنيين منهم والأكاديميين .

ولكن يصبح الأمر إذا ترك على هذا النحو من قبيل الهروب من مواجهته . خاصة بعد

البحث الطويل الشاق ، الذى جاب فى آفاق التربية فكرا وواقعا يتلمس الإجابة عن السؤال الكبير كيف نبنى تربية لدولة عصرية ؟

وبهذا يصبح أمام الباحث أن يواجه هذه القضية بحل مؤيد مما توصل إليه فى البحث من حقائق .

الواقع أننا لا يمكن أن نغلق مدارسنا ، وجامعاتنا ، ومعاهدنا ، وأن نقذف بمدرسينا وكتبنا ووسائلنا فى البحر ، وأن نبدأ من جديد .

كما أننا لا نستطيع أن نضع هذا النظام التربوى كله على الرف كما فعل محمد على دون تدخل فيه ، ونبنى نظاما وجهازا تربويا جديدا يؤدى وظائف ويحقق أهداف الدولة العصرية .

كما أننا لا نستطيع أن نسير فى طريق الرفو والترقيع تحت ما يسمى باسم التطوير .

فماذا نفعل إذن ؟

إن أوضاع التعليم المصرى على نحو ما ذكرنا ، وما لم نذكر ، وعلى نحو ما ينطق به واقعه ، وعلى نحو ما تشهد به مستويات ونوعيات خريجيه ، يحتاج إلى منهج ثورى علمى لا بديل عنه بأى حال من الأحوال . وهذا المنهج الثورى العلمى ينبغى أن ينطلق منه وفيه ، ومن حوله بحيث نحرق من الكتب مالا تصلح ، ونمزق من المناهج مالا تنفع ، ونحيل إلى التقاعد من المشتغلين به من جمد ولا يستطيع أن يستجيب للعصر ولمتطلباته ، وأن نحيل إلى الاستيداع كل طريقة ووسيلة لا تساير ركب المدنية المعاصرة ، ونهدم كل مدرسة لا تناسب فكرنا العصرى .

والثورة تصبح بهذا الشكل فوضى إذا لم تقم على أساس دراسة علمية لعناصر النظام وإحلال بديلات على أساس من المنهج العلمى . وهذا هو التحدى الحقيقى أمام التربية المصرية : أن تصبح علمية المنطلق ، والهدف ، والأساس ، والأسلوب ، والنتاج .

فالثورة تصبح جامدة إذا كانت عاجزة عن مجابهة كل هذه التحديات . كما تصبح غير قادرة إذا لم تجد تأييدا سياسيا وشعبيا وتربويا . وهى من ثم ينبغى أن تنطلق من منطلق سياسى شعبى تربوى . ولا يمكن أن يحدث ذلك دون شعور بتخلف نظامنا وجهازنا التربوى شعوراً عاما يدفع بالثورة الحقيقية فى مجال التعليم . ولن يتأتى هذا الشعور بالتخلف إلا إذا قامت الأجهزة التربوية ببحوث تضع من الحقائق العصرية أمام المربين ، والناس ،

والمسئولين ما يشعرهم بالتخلف الذى يخلق تحديا ضخما لا نستطيع أن نواصل الحياة فى ظله ، كما تضع من الحقائق ، والأساليب العلمية ما يمكن هذه التربية من الثورة العلمية على نفسها وفى مجالها دون أن تتكلف الدولة أعباء إضافية قد لا يكون بمقدورها الوفاء بها .

يجب أن نقوم إذن بعملية تثوير أساسية للبناء التعليمى ، فلسفة ، ونظاماً . واتجاهاً ، وبناءً ، ومنهجاً ، وطريقة ، ومدرسة وإعداداً للمدرسين ، وتقييما للطالب ، وربطاً للتعليم بالمجتمع ، مهنه ووظائفه ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأدبية والترفيهية .

ويعزز هذا الرأى ما قمنا بدراسته من تجارب عصرية ، فمن دراستنا السابقة للتجارب المعاصرة نرى أن سياسة الإصلاح ربما تناسب الدول التقدمية اقتصادياً وثقافياً ، وتكنولوجيا أكثر من غيرها . أما سياسية التثوير القائمة على البحث العلمى فتناسب وتلائم إلى حد كبير الدول التى تبنى نفسها بناء جديداً عصريا ومتقدماً .

إن الدول الغربية كان أمامها أن تصلح تعليمها لأنه يتطور دائماً مع المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية . أما الدول التى تريد أن تبنى نفسها بناء جديدا كلية فإنها تحتاج إلى إقامة مؤسسات لم تكن موجودة عندها من قبل ، فهى مثلا تريد أن تبنى هيكلا للتصنيع ، وهيكلا علميا ، وهيكلا تكنولوجيا ، وهيكلا تعليميا يفى بحاجات هذه الهياكل ومتطلباتها .

والهيكل التعليمى الذى يبنى على أساس الرفا . لأن سياسة الرفا هذه تجعل من الصعب إحداث تقدم وبناء سريع يلائم متطلبات الصناعة العصرية أو التكنولوجيا مثلا .

وإذا كان الهيكل التعليمى كله يحتاج إلى عملية بناء كاملة ، فإن عملية الترميم لا تقم بناء علمياً عصريا ، وإنما ربما تساعد على أن يستمر البناء لفترة سرعان ما يصعب بل يستحيل معه الترميم ، ثم ينهار على من فيه فيحدث تخلفاً للدولة عن مواكبة العصر ومعايشته .

وإذا كانت سياسة الترميم لا تبنى تعليما عصريا فلا يمكن إذن أن تتحقق الدولة العصرية . فسياسة الترميم و « الرفا » معناها أننا نبقى على عناصر من تعليم القرن التاسع عشر تعيش بيننا لتفى بمطالب الربع الأخير من القرن العشرين وهذا مستحيل من الناحية المنطقية فضلا عن استحالته من الناحية الواقعية .

كيف نستطيع أن نعدل المناهج ونصلحها فى ظل نظام تقليدى للامتحان ، وكيف نستطيع أن نطور الامتحانات فى ظل فلسفة قائمة على الحفظ والاستظهار؟ وكيف

نستطيع أن نصلح الكتب فى ظل نظام المواد المنفصلة ؟ وكيف نستطيع أن نعدل الإدارة المدرسية فى ظل النظام المركزى أو حتى اللا مركزى للتفتيش ؟ وفى ظل النظام الإدارى التقليدى ؟

« إن منطق الإصلاح فى التعليم يتمشى مع ما يتعرض له النظام التعليمى وما فيه من إغراء لأن يدفن صعوباته الحقيقية المتصلة بالأهداف ولأن يوفق بين وجهات النظر المتنافسة . وهو توفيق يبدو فى ظاهره عملا ممتازاً من أعمال الدبلوماسية الجماعية . ولكنه فعلا ليس إلا تخلصاً من العمل الأساسى والجاد فى الوصول إلى قرارات حاسمة وواضحة عن الأولويات . وجانب آخر من هذا الإغراء هو أن يفترض أن جميع الموضوعات التعليمية ذات أهمية متساوية . ومن ثم فلا يجب أن يوضع أى موضوع فى فترة ثانوية بالنسبة لأى موضوع آخر ، إذ أنها جميعا مكونات لا غنى عنها للنظام التعليمى . وكذلك أن يفترض أن النظام قادر على مواصلة تنمية الموضوعات الجديدة دون بتر القديم ، وأنه ينبغى أن تمنح جميعاً وقتاً متساوياً وموارد متساوية »[١] .

وهذا التنوير العلمى التربوى فى حاجة إلى ثلاثة أسس هامة هى :

- وعى القيادة السياسية بدور التربية وما يخصص لها من أموال فى تعصير المجتمع .

- قيادة تربوية عصرية ذات نظرة اجتماعية شاملة متكاملة ، تقود عمليات وخطوات الثورة العلمية فى مجال التربية فى إطار الثورة الاجتماعية الشاملة .

- أسس وأبحاث ودراسات علمية مصرية تستند إليها فى إرساء دعائم هذه الثورة ، حيث لا مجال لاستخدام أسلوب المحاولة والخطأ فى مجال هذه الثورة ، وإلا كنا كمن يحل مشكلات العلم بمنهج غير علمى .

ولهذه الثورة تحدياتها وشروطها ومقتضياتها مما يمكن أن نطلق عليها تحديات التعصير التربوى فى مصر فما هو ؟

تحديات التعصير التربوى :

- لابد أن تضع التربية المصرية نصب عينيها ، وهى تريد أن تعيد بناء نفسها ، وأن تسهم فى التغيير والتعصير أن تجديدها سوف يواجه بتحديات ضخمة منها :

---

(١) ف . كومبز . مرجع سابق . ص ١٧١ .

– سوف يواجهه ذلك التكتل الضخم من القوى البشرية العاملة فى مجالها بكل مكوناتها وأعدادها ، ومفاهيمها ، وأوضاعها المادية والاجتماعية ، ونوعها الكبير بين الصلابة الشديدة والمرونة الكبيرة .

– سوف تواجهه تلك الكتل الضخمة من الكتب ، والمناهج ، والوسائل المتكدسة بكل من ألفوها ومن ألفوها ، وبكل من فكروا فى صياغتها ومن تعودوها وجمدوا عليها .

– سوف يواجهه أولياء الأمور الذين يرتاحون لكل ما تعودوا عليه ويرغبون عن التجديد والتغيير الذى لم يروا بعد ثمراته .

– سوف يواجهه ما فى الفكر التربوى من أفكار تواترت ووجدت مرديها الذين بنوا لها التصورات والمنطق حتى ولو لم يكلفوا أنفسهم التجريب والاختبار لها ، وما فى هذه الفكر التربوى من أفكار مسطحة ، وأفكار مجردة بعيدة عن الواقع ، وما فيه من تطفل على الفكر الأجنبى ، وبعد عن الواقع الاجتماعى الذى يعيشه المجتمع .

– سوف يواجهه سلبيات الإدارة التربوية والمدرسية ، وعقم التخطيط التربوى وانعزاله عن الواقع ، وبدائية البحث العلمى فى مجال التربية ، وعدم تواصله أو تكامله أو جديته أو حتى مجرد فهمه واستيعابه وتمثله .

– سوف تواجهه سلبيات المناهج التى عجزت عن أن تتواكب مع العصر ومقتضياته وتتمثل حقائقه وتسمح بإعداد أبناء المجتمع لمستقبل سوف يعيشونه ويتبعهم إليه غيرهم .

– سوف يواجهه قصور الإمكانيات المادية والتمويل بكل شحه بخله[١] .

---

(١) فى ورقة العمل الرئيسية التى أعدتها اليونسكو للمؤتمر الإقليمى الثالث لوزراء التربية والوزراء المسئولين عن التخطيط الاقتصادى فى الدول العربية (يناير سنة ١٩٧٠) ، طرحت مشكلة التمويل التربوى والحاجة إلى دراستها على النحو التالى .

« لقد أوصى مؤتمر « طرابلس » Tripoli عام ١٩٦٦ بأن تجرى لبلاد العربية تحليلا اقتصادياً لتكاليف التربية لكى تحرز أقصى اقتصاد . . ولقد بدأ مركز بيروت الإقليمى مثل هذا التحليل ، ولكن ثبتت صعوبته بسبب نقص المعلومات المفصلة الدقيقة . . ومن أجل هذا فمن الصعب تقدير مجهود الأمة الكلى فى التربية .

إن الموقف التمويلى الحاضر الذى يواجه التربية (فى البلاد العربية) يدعو إلى شدة الانتباه . فلأننا نملك كمية محدودة من الموارد وعدد ضخم من التلاميذ ، فإن الأهداف المرغوبة للقيد تبدو بعيدة ولذلك يجب البحث عن طريق . . . »

- Unesco, Trends in General, technical and Vocational education in the Arab states: A paper prepared for the Marrakesh conference, 12—20 January 1970 (Unesco. MINEDARAB 4) pp. 12--13.

Referred to by M. A. El--Ghannam, Financing ed. in the Arab States, Asurvey of recent trends and future prospects, IIEP, Occational papers 20, Unesco: International Institute for Educational Planning, P. 1.

– سوف تواجهه سلبيات « النقابة » بكل قصورها وفشلها فى تأدية دور ذى بال فى التربية سواء فى مجال العمل التربوى أو فى مجال رعاية المعلمين اجتماعيا وماديا .

– سوف تواجهه الأفكار والقيم الاجتماعية الهابطة من حول التعليم العام والفنى .

– هذه تحديات حاولنا حصرها وأخرى لم نذكرها ، لا لعدم أهميتها ، ولكننا اقتصرنا على تلك التى ذكرناها كأمثلة تواجه التثوير العلمى التربوى ؛ لنعرف فداحة التحديات التربوية ، وصعوبة التغيير التربوى . المهم أن التربية المصرية إن أرادت أن تعيد بناء نفسها عليها أن تواجه هذه التحديات بشجاعة .

– إن هذه التحديات تثير القضايا الرئيسية الآتية .

أول هذه القضايا ولعلها أخطرها قضية إعادة بناء القوى البشرية العاملة فى التربية من القاعدة إلى القمة وفى وسطها المعلمون القدامى والمحدثون ، كيف يدرك هؤلاء جميعا تحديات التربية فى مجتمع يريد أن يأخذ بأسباب العصر وكيف يدركون السبل لمواجهة هذه التحديات والتغلب عليها . كيف يأخذ المعلمون مواقع أساسية وفعالة فى استراتيجية التغيير ، وكيف يقودونها بنجاح . كيف يعاد بناء القدامى وكيف ينشأ المحدثون ؟ وهذا يتطلب التفكير فى إعدادهم ، وفى معاهد إعدادهم ، وفى مناهجها ، وأهدافها ، وطريقة إعدادها لهم [١] .

وثانى هذه القضايا البحوث العلمية : وكيف تقام التربية فكراً وواقعاً على أساس من التجريب والبحث العلمى [٢] ؟

وثالث هذه القضايا : الإدارة : وكيف تنتهج مناهج علمية فى قراراتها وفى أساليبها فى الواقع التربوى حتى تصبح إداة ميسرة للبحث العلمى ، والواقع التربوى ؛ حتى تتمكن التربية من أن تساير ركب الاكتشاف العلمى .

ورابع هذه القضايا : التخطيط : كيف يبنى على أسس علمية ، وكيف يحدث تكاملاً بينه وبين التخطيط القومى الشامل فى جميع مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى فى الدولة .

---

(١) انظر فى المشكلات الخاصة بالمعلمين وإعدادهم وأحوالهم فى البلاد العربية ومنها مصر.
M. A. El—Ghannam Opcit, (Ed. in the Arab region viewed from the 1970 Marrakesh) p. 19.

(٢) انظر فى هذا المجال : بحث « علمية التربية » للمؤلف ، مجلة كلية الآداب والتربية ، عدد ديسمبر (كانون أول) ١٩٧٥ م ذو الحجة ١٣٩٥ هـ العدد الثامن ، ص ١٤٧ – ١٥٥ .

هذه أهم القضايا التى يجب أن تواجهها التربية المصرية بشجاعة إن أرادت أن تحسم قضاياها وتصبح تربية عصرية . ولعل حل هذه القضايا . وما يتعلق بها من مشكلات هى مسئولية البحث العلمى فى مجال التربية أساساً ، وبنائه على أسس نظرية علمية ، وأسس واقعية علمية أيضاً ثم تنفيذ نتائجه بدقة ، ومتابعتها .